ذكريات ومواقف

مع فضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز أبا زيد

رحمه الله تعالى

اسم الكتاب	ذكريات ومواقف
بـــقـــلـــم	عطية بن أحمد بن محمد الوهيبي
تصـــــمـيـم	مكتب السراج المنير ، هـ +90-5366591706
ســـنة الطبع	١٤٤٥ هـ ـ ٢٠٢٤ م
ISBN	978-625-6715-00-4

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ ـ ٢٠٢٤ م

دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع

www.ravzayayinlari.com
SERTİFİKA: 43988

دار الروضة

تركيا ـ استانبول ـ

هاتف: ٠٠٩٠-٢١٢٥٢٨٤٦١٧

فاكس: ٠٠٩٠-٢١٢٥١٤٢٧٣١

ذكريات ومواقف

مع فضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز أبا زيد

رحمه الله تعالى

بقلم

الشيخ الدكتور

عطية بن أحمد بن محمد الوهيبي

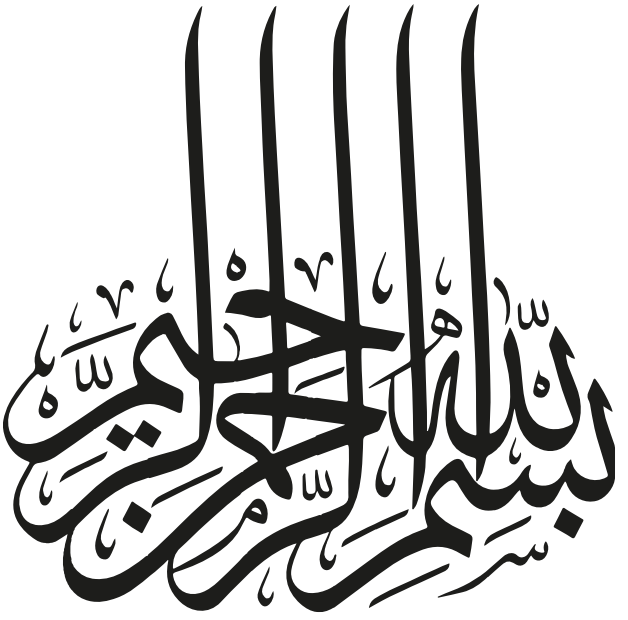
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم على سيِّدنا ورسولنا محمَّد بن عبد الله إمام الانبياء والمرسلين وعلى آله الطَّيبين الطَّاهرين ، وأصحابه الغُرّ المَيَامين ، ومَنْ تَبعهم بإحسان الى يوم الدّين .

اللّهم أخْرجنا من ظلمات الوَهْم ، وأكرمنا بنور الفهم ، وأنعم علينا بالهداية والعلم ، واجْنبنا الضَّلالة والغواية ، وافتح لنا وللمسلمين بركاتٍ مِنَ السَّماء والأرض .

اللهم انصر عبادك المجاهدين في سبيلك في سُوْحِ الجهاد في الشَّام وسائر البلاد بحولك وقوَّتك يا ربَّ العباد . اللّهم اجمع كلمتهم ، وأَعلِ رايتهم ، وسدِّد رميتهم ، وأَحْكم خُطَّتهم ، واجعل في أَحبِّ خَلقِك إليك ولايتهم ، وافتح لهم فتحًا مبينًا ، وكن لهم حفيظًا ومعينًا .

اللّهم اكشف كرباتنا ، وآمن روعاتِنَا ، واغْفر حَوبَاتِنا ، واسْتر عَوْراتنا ، وكَفّر سَيئاتنا ، وبَدِّلْ سَيئاتِنا حَسنات ، وارفع درجاتنا يا ربَّ الأرض والسَّماوات ، اللّهم ارزقنا الإخلاص الكامل لوجهك الكريم في الأقوال والأعمال والنِّيات ، وجَمِّلْنا بالأخلاق الزَّاكيات الطّيبات المرضيّات ، واجْعَلنا مِنَ المُسَارعِين في الخيرات المتنافسين في طاعتك يا رب العالمين .

اللّهم اشفِ مرضانا ، وعافِ جرحانا ، وفَرِّجْ عّنْ أسرانا ، وأطعم جائعنا ، وأمِنْ خائفنا ، واكْسُ عَارينا ، وآوِ شريدنا ، وأَسْكن شهداءنا وأمواتنا فسيح الجنان .

اللّهم دَمِّر على طاغية الشَّام بشّار وأعوانه القتلة الفُجّار وعلى الرّوس والمجوس وأعدائك المُبْطِلين كلِّهم أجمعين يا جبار يا قهار، اللّهمّ أَحْصِهم عَدَدًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تغادر منهم أحدًا. اللّهمّ مُنزل الكتاب ومُجري السَّحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم يا ربّ العالمين.

يا ربنا دَمِّرْ عليهم في سكرة، ومزقهم في غَمْرة، وأهلكهم في حَيْرة، واسلبهم مدد الإمهال ولا تبلغهم الآمال يا قوي يا مُتعال.

اللّهم ارحم هذه الأمة المسلمة، واجعلها آمنةً في دُورها وديارها، وولِّ عليها خيارها وأبرارها، واجعل لها من أمرها رشدًا، وبَوِّئهَا مقام صِدقٍ في العالمين، وألْبِسها حُلَلَ النَّصر، يا مَنْ لك الخلق والأمر، اللّهمّ آمين آمين يا أرحم الرّاحمين.

أمّا بعد:

فقد كتبتُ صفحاتٍ في سيرة عَلَمٍ مِنْ أَعْلام الأُمّة الثّقات الأثبات في شام العزّة والعلم والبطولة والرّجولة والتّضحيات، كتبتها قبل أنْ ترفرف رايات الجهاد في أكنافها العامرة بسنوات ثلاث.

وقرأها أخي الحبيب خالد أبا زيد، أبو حسان[1]، وقال:

---

(١) خالد الرشيد أبا زيد: أخ مجاهد صبور هاجر في ثمانينيات القرن الماضي، مع أسرته الكريمة المجاهدة، وتنقل في الأمصار والأقطار، وصاول عصابات الإجرام الّتي حكمت بلاد الشام، كان صديقًا صدوقًا للكتب والمكتبات وأخًا ثِقَةٍ في تَتَبّع نفائس المَخْطوطات وتحقيقها، عمل في مكتبات صنعاء، واكتحلت عيناه برؤية فجر الثّورة السّورية المباركة الّتي كان يَتَشوقُ إليها، تُوفي في الأردن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلى، بتاريخ: ١١/ربيع الأول/١٤٤٢هـ يوافقه: ٢٠٢٠/١٠/٢٨.

«مَنْ الّذي يجرؤ على نشرها ويشجع على طبعها ، وذئاب النّظام الباطني النّصيري الخَؤون تَعوي في كُل مكان ، وتُطارد العلماء العاملين والدّعاة المخلصين والمفكّرين ، وتَغتال الكلمة الحرّة ، وتُعلقها على أعواد المَشَانق ، احتفظ بأوراقك يا أخي فلعلك تلقَى الله تعالى قَبْلَ أنْ يَطْلُعَ عليها فجر الحريّة» .

وشاء الله تعالى أنْ تنهض الشَّام من كبوتها ، وتستيقظ من غفلتها ، وتَنْهَدَ مِنْ سَكرة ذلٍّ ألمّت بها ، وأنْ تحمل راية كرامتها ، وتكون طليعة أمَّتها ، وحارس ثغورها ، ورأس حربتها ، في مصاولة نظام طاغوتي تسانده قوى الإجرام العالميّة في الميادين كافّة ، العسكريّة والسّياسيّة والأمنيّة والإعلاميّة وغيرها . لأنّه مخلبها الأسْود الفاتك وظفرها القاتل في ذبح الأمّة وإجهاض تطلّعاتها في حياة حرّة عزيزة .

ويشاء الله تعالى أنْ يكون لحوران شرف السَّبق في حمل راية الثّورة واندلاع لهيبها ، وأنْ يتقدم أبناؤها السَّاح في ميادين النِّضال والكفاح ، وأنْ تمتد الثّورة إلى أرجاء الشَّام كلها تحرق عروش الطّغاة العتاة المُستكبرين .

قدْ أَشْرقت شَمسُ الكَرامة في دَمٍ مِنْ جُرح حَورانَ الأَبيةِ سَـــالا

إنَّ النَّواويَّ النَّبيلَ إمَامُنا فوقَ الطُّروس يَراعُه قدْ صَـــالا

كَتَبَ الرِّياضَ وسَطَّر المَجْمُوع لم يكْنز من الدّنيا ولو مثقالا[1]

---

(١) الأبيات جزء من قصيدة كتبها كاتب هذه الذّكريات عندما اندلعت الثّورة السورية في درعا في آذار ٢٠١١م ، ومطلعها:

يا شـــامُ ثوري حطّمي الأغلالا ليل الطّغاة بأرضـــنا قد طالا .

والرياض هو كتاب رياض الصّالحين ، **والمجموع** هو كتاب الفقه الذي يعد موسوعة في الفقه الإسلامي .

ولا ريبَ أنَّ شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد هو واحد من العلماء الأفذاذ الّذين ورثوا الإمام النّوويّ يحيىٰ بن شرف شيخ الإسلام إمام أهل الشَّام علمًا وعملًا وأخلاقًا ودعوةَ وجهادًا وأمرًا بالمعروفِ ونهيًا عَنْ المُنكر.

تعريف وجيز بالشَّيخ عبد العزيز أبا زيد

قبل الشّروع في الذِّكريات والمواقف هذا تعريف وجيز بفضيلة شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأعلىٰ مقامه.

هو الشَّيخ العلّامة عبد العزيز جبر فالح إبراهيم عثمان أبا زيد عالم حوران ومفتيها وحامل لواء العلم والدّعوة والإرشاد والإصلاح والجهاد فيها.

ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في مدينة أذرعات (درعا) عام ١٩١٠م في أسرة كريمة نبيلة رضع فيها لبان الكرم والنّبل والخير والفضل، درس المرحلة الابتدائيّة في مدرسة نموذج وأنهىٰ تعليمه فيها عام ١٩٢٢م.

وفي عام ١٩٢٨ يمم الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ شطر مدينة دمشق عاصمة بني أمية مدينة العلم والعلماء، أسأل الله رب العالمين أن يعيدها إلىٰ مجدها الإيمانيّ ومكانها العليّ وأن يطهرها من أرجاس الاحتلال النُّصيريّ والفارسيّ والرّوسيّ والصّهيونيّ والغربيّ والأمريكيّ، وذلك لطلب العلم الشّرعيّ وانتسب إلىٰ مدرسة العالم الرّباني عليّ الدّقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وهناك قرع الشَّيخ الظُّنبوب[1]، وشدَّ المئزر، وطفق يَنْهل من موارد العلوم الشّرعيّة والعربيّة، ويتضلّع منها وقد أخذ العلوم عن كبار علماء العصر، وعلىٰ رأسهم محدّث الشَّام الأكبر بدر الدّين الحسنيّ والشَّيخ عليّ الدّقر وسواهما من العلماء الأعلام الثّقات الأثبات وُرَاثِ النَّبي محمَّد ﷺ.

---

(١) الظنبوب وجمعه ظنابيب وهو عظم الساق يقال: قرع للأمر ظنبوبه إذا جد واجتهد فيه ولم يفتر.

وقد كان لمسلكهم العلميّ في التّدقيق والتّحقيق والأخلاقي في الاستقامة والزّهادة والعبادة أثر كبير محمود مشهود في تكوين شخصيّة الشَّيخ العلميّة والدّعويّة والأخلاقيّة، وكان الشَّيخ يذكر مآثر شيوخه ومناقبهم ويثني عليهم أطيب الثّناء وأعطره وأسماه.

وفي عام ١٩٣٨ عاد الشَّيخ إلىٰ مدينة أذرعات وكانت له قدم صدق راسخة في نشر العلم الشّرعي وتبصير النَّاس بحقائق الرّسالة الإسلاميّة الغرّاء رسالة هداية الإنسانيّة إلىٰ الله ربّ العالمين وإنقاذها من الشّقاء والتّيه والضّياع والعذاب المهين.

وقد أكرم الله تعالىٰ الشَّيخ بالحجّ والعمرات مرات عديدة، ومنها خروجه حاجًا معتمرًا علىٰ ظهور الإبل عام ١٩٤١م، وقد روىٰ في بعض جلساته من ذلك مشاهد ومواقف طيبة كريمة فيها نفحاتٌ وتجلّيات، يكرم الله تعالىٰ بها عباده الحجاج والمعتمرين.

وقد دَرَّسَ الشَّيخ علوم الدّين في المدارس العامّة والخاصّة الابتدائيّة والإعداديّة والثّانويّة، وكان نموذجا فريدا فذًا في إفادة طلبته والحرص عليهم، وكان قدوةً طيبةً تُحتذىٰ في الأقوال والأفعال وكريم الخصال، تترسم خطاها الأجيال.

وقد أسس الشَّيخ مع الشَّيخ الشّهيد السّعيد سليم المصري[١] وآخرين جماعة الإخوان المسلمين في حوران، وكان لها صولات وجولات في بناء

(١) وهو من علماء حوران وفقهائها ودعاتها وخطبائها المشهورين، كان يقول كلمة الحق لا تأخذه في الله تعالىٰ لومة لائم، قضىٰ شهيداً في سجون الكفور الأثيم حافظ الأسد بعد أنْ اعتقل في شهر شباط عام ١٩٨٥م، واستشهد في السجن في ١٩٩٠/٠٩/٢٤م، أسكنه الله فسيح جناته وشمله بعظيم إحسانه وعظيم غفرانه.

صروح العلم والدّعوة ومنازلة الفكر العلمانيّ الإلحاديّ ومنظريه من المضلّين المفسدين.

تولىٰ الشَّيخ منصب الإفتاء في درعا عام ١٩٨٧ بعد الشَّيخ بركات الضَّمَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان المرجع في الفتوىٰ في حوران قبل ذلك وبعده، يفزع إليه النَّاس في شؤونهم وقضاياهم، له الأيادي البيض في حلّ المشكلات وفضّ الخصومات وبناء السّلم الاجتماعي ووأد العداوات والذّحول[١] وإطفاء الفتنة النائرة[٢] وإخماد العصبيّة القبليّة الثّائرة.

وفي عام ١٩٨٧ أنشأ الشَّيخ ثانويّة الإمام النّوويّ للعلوم الشّرعيّة، وتجشّم الصّعاب في سبيل إنشائها وبنائها ولاقىٰ من السُّلطات الرَّسميّة عنتًا ومشقة، وفي هذه المدرسة تخرج خيرة طلّاب العلم والدَّعوة الّذين كان لهم شأن عظيم وشأو كبير في إحياء علوم القرآن والسُّنَّة.

كما أنشأ الشَّيخ بعد ذلك بنظره الثّاقب وتفكيره الصّائب أيضًا الثّانويّة الشّرعيّة للبنات، إدراكا منه لرسالة المرأة المسلمة في رعاية الأطفال وبناء الأجيال وتربية الأبطال وتشييد صروح الفضائل ومحاربة الفساد والرَّذائل، والمرأة نصف المجتمع وتربي نصفه الآخر.

وكان للشّيخ حضور كريم في عدد من النَّدوات والمؤتمرات وإلقاء المحاضرات الإسلاميّة في عدد من الأمصار والأقطار.

قضىٰ الشَّيخ سواده وبياضه في العلم والدّعوة والإصلاح والجهاد والعبادة، صلّىٰ الشَّيخ آخر صلاة له فرض العشاء مع التَّراويح، ورقد في فراشه

---

(١) الذحول جمع ذحل الحقد والعداوة، ويجمع أيضا علىٰ أذحال، يقال: طلب بذحله، أي: بثأره.

(٢) النَّائرة: العداوة والشحناء.

ينشدُ الرّاحة، ورَغِبَ إلىٰ أهله أنْ يُوقظوه حتىٰ يصلّي من الليل، فاختاره الله تعالىٰ الىٰ جواره والبسمة تغمر محيّاه فَرَحًا بلقاء الله تعالىٰ خالقه ومولاه، وذلك **في ليلة الخميس في الثّالث والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٣هـ**، يوافقه ٢٠٠٢/١١/٢٧م.

وخرجت في جنازته جموعٌ حاشدة كبيرة من تلاميذه ومحبّيه، وشاركت جماهيرُ حوران والجولان وعلماء دمشق، وحضرت وفودٌ من الرّمثا وإربد لتشييعه، ودُفن في المقبرة الجنوبيّة في درعا البلد حي البحار، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

وسأقتصر في هذه الصّفحات علىٰ تسجيل بعض المواقف والصّور الّتي يُسْعَدُ قَلمي بتسطيرها مِنْ خلال صحبةِ هذا الأستاذ النّبيل والشَّيخ العَلَم الجَليل، وما راءٍ كَمن سَمِعَ.

أكرمني الله تعالىٰ أنْ تَعرّفتُ شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد بعد أنْ هاجرت مع أُسرتي من هضبة الجولان السّوريّة المُحتلة، بعد أنْ استولىٰ عليها اليهود إثْرَ نَكْبة حزيران عام ١٩٦٧م، في مسرحيّة هزليّة لم يشهد لها تاريخ الحروب ضَرِيْبًا.

وسَلّمها العلج النُّصيريّ حافظ أسد للصَّهاينة من غير حرب ولا قتال، إذ كان يومها وزير الدّفاع، فهو الّذي أعلن سقوط القُنيطرة في بلاغ رقم (٦٦) الشّهير في يوم أسود كئيب قَمْطَرِير مِنْ قَبْلِ أنْ يُدنس ثراها جندي يهوديّ واحد. وأقمنا بعد ذلك في مخيمات الهوان والشَّتات في محافظات أذْرِعات المدينة الشَّهيرة الّتي قال فيها امرؤ القيس[(١)]:

---

(١) ينظر البيت في ديوانه.

تنوَّرتها من أذرعاتٍ وأهلها بيَثْرِبَ أدْنىٰ دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ

وقال أبو ذُؤيب الهُذلي:

فما إنْ رَحِيقٌ سَبَتها التِّجَا رٌ مِنْ أذرِعاتٍ فوادِي جَدَر

وذكرها العلّامة ابن مالك صاحب الألفيّة في قوله:

كذا أُولات، والّذي اسما قدْ جُعِلْ ـ كأذرعاتٍ ـ فيه ذَا أيضا قُبِلْ

وأذْرِعات هِي عاصمة حوران، والنِّسبةٌ إليها أذْرَعِيٌ، وتُعَدُّ مِنْ أقدم المُدن وتسمّىٰ الآن دَرْعَا.

ألقينا عصا التّسيار في درعا، ومن قبل هاجر والداي من فلسطين عام ١٩٤٨م بعد أنْ جاسَ خلالها الصَّهاينة المجرمون وأسلمتها الزَّعامات الخَؤُون إلىٰ بني صهيون. ومُصيبة أمّتنا في القيادات والزَّعامات والحكومات الّتي دَرَبَتْ علىٰ السّجود لهُبل ومَرَدَتْ علىٰ النِّفاق، وصُنِعت في جُحُور أعداء الإسلام، ومجّدتها وسائل الإعلام وصفّق لها الرَّعَاع والطَّغَام.

وقد أكرمني الله جل في علاه بمعرفه أستاذنا العلّامة عبد العزيز جبر أبا زيد وحُضور دُرُوسه ومُحاضراته ونَدواته وصَحِبته في بعض أسفاره ورحلاته، ونَعِمْتُ بذلك زمنًا كان من أجمل أيام العُمُرِ وأغلاها، وأحسنها وأبهاها، وأطيبها وأحلاها.

وفي أوائل ثمانينيات القرن الماضي عَصَفَتْ في بلاد الشَّام عواصف الظُّلم والإجرام والطّغيان، وهَبَّتْ عليها رِيحٌ صَرصَرٌ عقيم، تَرَكَتْ مغانيها الخضراء وحدائقها الغناء وبساتينها الفيحاء كالرَّمِيم، كان ذلك في عهد حكم

رأس البغي والظُّلم والإفساد والإلحاد حافظ أسد العتل الذّميم.

فهاجرتُ مِنْ محافظة أذرعات مع منْ هاجر مِنْ إخواني الأحبّاء. ورَعَتْ السّجون والمعتقلات شبابًا وعلماءَ وفقهاءَ ومصلحينَ ومفكرين ودعاة هُداة كانوا زينة البلاد وحِلْيَةَ العِبَاد. وأصبحت الشَّام سجنًا كبيرًا. كان ذلك في شهر شعبان عام ١٩٨١م. وحُرمتُ كما حُرِم غيري من شباب حوران ورجالها صحبة الشَّيخ والإفادة من علمه وفضله وفقهه ونُبْله.

إذا ما ضَـــاقَ صَـــدرُك في بلادٍ ... تَرَحَّـلْ طَـالبًـا أرضًـــا سِـــواها

عَـجِـبـتُ لـمـن يـقـيـم بـدارِ ذُلٍّ ... وأرض الله واســـعـة فضـــاهـا

فـذاك من الرّجـال قلـيـل عقـلٍ ... بلـيـد ليس يـدري مـا طحـاهـا

فنفســك فُزْ بها إنْ خفت ضـــيمًا ... وخَـلِّ الـدَّار تَـنْـعَىٰ مَـنْ بَـنَـاهـا

فـإنّـك واجـدٌ أرضًـــا بـأرضٍ ... ونَفْسًـــك لا تَجِدْ نَفْسًـــا سِـــواها

مشـــيناها خطًـــى كُتبـــت علينـــا ... ومَنْ كُتبت عليه خُطًى مشـــاهـا

ومـن كـانـت مَـنِـيّـتـه بـأرضٍ ... فليس يموت في أرضٍ ســـواهـا

وهذه الأبيات كثيرة الدَّوران على الألسنة في الأمصار والبلدان، ونسبت لأكثر من شاعر، والمشهور أنّها للعلَّامة الأستاذ عبد العزيز الدُّريني وكان عالمًا جليلًا وشيخًا نبيلًا عاش في مدينة المنصورة بمصر في القرن العاشر الميلادي. والله تعالى أعلم.

وقد ضربنا في الأرض، ومشينا في مناكبها، وطوَّفنا في أكنافِها، وقُلوبنا معلّقة بالشَّام لا تَرِيم، تَحُوم فوق سهولها وهضابها ومدنها وقراها، وتَسْجُد

في محاريب مساجدها، وترقب يوم العودة إليها وهو اليوم الأروع المأمول البَسَّام، وقد كان.

تُوفي شيخنا عام ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، وقد أربَىٰ علىٰ التّسعينَ عامًا، وقد فقدت بلاد الشَّام وأمة الإسلام بموته عالمًا ربانيًّا، ورجلًا قرآنيًّا، وداعيةً كبيرًا، وفقيهًا نحريرًا، ومصلحًا جليلًا، ومُربّيًا نبيلًا. وكان الخطب فادحا جَلَلًا، أدْمَىٰ القلوب، وأبكىٰ العيون، وأفاضَ علىٰ النّفوس الأسىٰ والشّجىٰ، وغمرها الحُزن والألم، فليس لعين لمْ يفض ماؤها عذر.

ما لِحَيٍّ مُؤَمّلٍ منْ خلود ... كلُّ حَيٍ لاقِي الحِمام فمودِ[١]

إنَّ عبد العزيز يوم تُوفِي ... هُدَّ صَرْحٌ ما كانَ بالمَهدودِ

ليتَ شِعري هَل دَرَىٰ حَاملوه ... ما علىٰ النَّعش من عفاف وجود

كادت النَّفس أنْ تفيضَ[٢] عليه ... إذْ غدَا حَشوَ رَيطةٍ وبُرودِ[٣]

ووصف الأخ المهندس الشّيخ الدّاعية مطيع البطين[٤] مجلس عزاء الشّيخ

---

(١) مُودِ: من الفعل أودَىٰ بمعنىٰ هلك.

(٢) من فاضت نفسه: أي خرجت روحه، وهي لغة تميم، ويُروىٰ أيضًا تفيظ بالظّاء علىٰ لغة قيس.

(٣) الرَّيطة والبُرود: أراد بها الأكفان.

(٤) الأستاذ المهندس الشَّيخ مطيع البَطِين من مواليد مدينة نوىٰ عام ١٩٦٨م، مهندس عمارة، خرّيج جامعة دمشق، مجاز في الشَّريعة الإسلاميَّة من جامعة الأزهر. وهو المتحدث الرَّسمي باسم المجلس الإسلاميّ السوري في الوقت الحالي، وهومن رجالات الثَّورة السوريَّة المباركة المنصورة البارزين.

من مؤلفاته القيمة كتاب: (الاحتلال الإيراني لسوريا... الممارسات والمواجهة) مترجم إلىٰ اللغتين: التركيّة والإنجليزية، وكتاب: (هويتنا السّورية معضلة شعب أم أزمة نخب). وهو داعية وخطيب مشهور في مساجد محافظة درعا. استهدفه قنَّاص العصابة الحاكمة المجرمة برصاصات قاتلة في الصَّدر وقاه الله تعالىٰ شرَّها وشفاه منها.

عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وصفًا دقيقًا بارعًا وذكر أنَّه استمرَّ ثلاثةَ أيام، ولم تشهد له البلاد مثيلًا، وأَمَّه كبار العلماء، وتسابق إليه كبار السّادة الفضلاء الّذين جاؤوا من كلِّ حدب وصوب، منهم من يعرف الشّيخ وتربطه به أواصر المحبة وأسباب المودة، وقد خالطه وعايشه، ومنهم سمع بفضله وعلمه ونبله أو لقيه لقاءً عابرًا.

وقد أفاض هؤلاء العلماء الأفاضل الأماثل في ذكر مواقف الشّيخ النّبيلة الجليلة، وتباروا في ذكر فضائله، وتنافسوا في تعداد مآثره ومناقبه وكريم فعاله وجميل خصاله بأطيب الكلم وأجزله وأفصحه وأبينه، وتحوّل مجلس العزاء إلىٰ مؤتمر علميّ دعويّ عظيم تكسوه حلل الوقار والمهابة والجلال.

ومن هؤلاء العلماء الرّبانيين الأعلام البدور الّذين زانوا هذا المؤتمر الحاشد الرّاشد الشيّخ المُحَدّث المحقّق خادم السّنة النّبويّة الشّريفة الدّاعية: عبد القادر أرناؤوط، والشّيخ الفقيه الحنفي الأصولي القارئ المتمكّن: عبد الرّزاق الحلبيّ، والشّيخ العالم الدّاعية الرّاسخ: عبد الله الغلاييني، والشّيخ الأستاذ الجامعيّ الدّكتور الفقيه الأصوليّ العلّامة صاحب التّصانيف المنيفة: وهبة الزحيلي، والشّيخ العلّامة الدّاعية المربّي المجاهد: أسامة عبد الكريم الرّفاعيّ وهو الآن المفتي العامّ للجمهوريّة العربيّة السّوريّة ورئيس المجلس الإسلامّي السّوريّ، وأخوه الشّيخ العالم الفقيه الأصوليّ الدّاعية: سارية عبد الكريم الرّفاعيّ، وجمهرة كبيرة من علماء دمشق وفقهائها ودعاتها ووجهائها، وهناك علماء آخرون كانوا يتبارون في ذكر مواقف الشّيخ وعلمه وفقهه وورعه وزهده ودعوته وثباته بفصاحة لسان وقوة بيان، وحسن تبيان، زلت بهم الأقدام وحطبوا في حبال عصابة الخيانة والعمالة والإجرام والطّغيان،

وهتفوا باسم زعيم المافيا الباطنيّة الكافرة الغادرة المجرم بشار المثبور الكبتاغوني الخوان، وخسروا شرف الاحتشاد في ثكنات جهاد شعبهم المسلم المجاهد المقدام المغوار، وأحلّوا أنفسهم دار الخسار والهلاك والبوار، وغرتهم الحياة الدّنيا وغرهم بالله الغرور. انتهىٰ كلام الأخ المهندس مطيع البطين.

وسأقف عند بعض الصُّور النَّضرة والمواقف العطرة في حياة هذا الطَّود الشَّامخ والعلم الباذخ، عسىٰ أنْ تكون منارات هاديات ومعالم حقٍ وثباتٍ لأبناء المسلمين، الّذين حَرَصَ الطّواغيت علىٰ أنْ يظلوا في دياجير الظّلمات، يَغُطون في وَهَنٍ وسُبَات، لعل الأجيال المسلمة تجدُ في هذه الصَّفحات ما يُذْكي حَزْمها ويُورِي عَزْمَها، ويحفّزها إلىٰ السَّيْر الدَّؤوب في مَواكب الدَّعوة والجهاد والعمل الصّالح، حتىٰ لا تتفرَّق بهم السُّبل ولا تتشعّب أمامهم المسالك والدُّروب.

ومن الله وحده أستمد العون والمدد، وأسأله تعالىٰ الإخلاص والتّوفيق والرَّشَد، إنَّه خير مسؤول وأكرم مأمول وهو حسبي ونعم الوكيل.

مع الشَّيخ في رحاب المسجد الحرام وأول لقاء بعد الهجرة

كان من توفيق الله تعالىٰ لي وإنعامه عليَّ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النّحل: ١٨] أنْ أكرمني بأداء فريضة الحج في عام ١٩٨٤م، بصحبة عدد من الأفاضل الأكارم الّذين بطشت بهم يد الطّغيان وسطت بهم عصابةٌ مارقةٌ ظَلُوم غَشُوم، حكمت الشَّام بالحديد والنّار، وشرّدت أبناء الشَّام الدُّعاة المجاهدين الأخيار، وزرعت في الأرض الخَراب والدَّمار، وأذاقت النَّاس كؤوس الموت الزّؤام. فكان أداء فريضة الحج مثابةً للقاء الأحباب والخلّان والأرحام.

هاجرتُ إلىٰ العراق عام ١٩٨١م مع جمهرة كبيرة من رجالات الشَّام وأبنائه الصّيد[١] الغطاريف[٢] الكرام ـ ومنهم من هاجر إلىٰ غيره من البلدان والأمصار ـ بعد أنْ بَطَشَتْ يدُ الطُّغيان والإجرام بأهل الإسلام في الشَّام، وزجَّت عِصَابة بَاطِنِيَّةٌ مجرمةٌ مارقةٌ تَؤُزُّهَا قُوىٰ الاستكبار والظّلم العالميّة، زجتْ بالعلماء والمفكرين والمصلحين وعاشقي الحريّة والعدل ومحبي الخير والكرامة في غَيابات السُّجون والمعتقلات، واجْتَرَحَتْ المجازر الرّهيبة والمذابح الرَّعِيبة في بلاد الشَّام المباركة، ومنها مجزرة حماة مأساةُ العَصَرِ في شهر فبراير شباط عام ١٩٨٢م، وفاقت جيش المغول المُغير في القتل والتَّدمير.

---

(١) الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل المزهو بنفسه، ويقال: امرأة صيداء، وهي التي تأخذ الرجال بحبال مكرها.

(٢) الغطاريف: جمع غطريف بكسر الغين، وهو السيد الكريم السخي.

وقد أقمتُ في مدينة بغداد ـ حرسها الله تعالىٰ ـ عاصمة أبي جعفر المنصور وهارون الرّشيد الّذي قال للغمامة: «أمطري حيث شئت فَسيأتيني خراجك» ، الرَّشيد الّذي كان يحجّ عامًا ويغزو عامًا ، وأدّب كلب الرّوم نقفور ، وأهدىٰ السّاعة لشارلمان ملك فرنسا ، الّذي ظنّ هو وبِطَانته وأفراد حاشيته وقساوسته أن في داخلها شيطانًا يحركها وكانت أوّل ساعة تدخل أوروبا ، يوم كانت أوروبا الّتي تَعْلَمُ اليوم ظاهرا مِن الحياة الدّنيا تَسبح في ظلمات بحرٍ لُجِّيٍ مِنَ الجهل والتّيه والشَّقاء والظُّلم والغُشْمِ.

وكان المسلمون يتربعون علىٰ عرش قيادة العالم يَحْمِلون إلىٰ الإنسانية الهِداية والرَّحمة والعِلم والعَدل والحُريّة.

صـــباحُ بغدادَ تَجْلو العَين طَلعتُهُ ... وليـلُ بغـدادَ كحـلٌ حين نَكْتَحـلُ

العيش فيها ظليلٌ وارفٌ خَضِـــلٌ ... وعنـد دجلـة يحلو العَـلُّ والنَّهـلُ

بغداد عِشـتِ علىٰ الأزمان شـامخةً ... الوجـهُ مؤتلقٌ والمجـدُ متّصـــلُ

يـا بنـتَ هـارونَ لا مَسَّـتْكِ عَاديـةٌ ... ولا أصَـابكِ إلا العارضُ الهَطِلُ[1]

كانت إيران يومئذ تمطر العراق بالوابل المِدرَار مِنَ اللّظَىٰ والنَّار ، ويسعىٰ خميني إلىٰ احتلال العراق ودول الخليج ، وذلك جزء من المخطط الإيراني للسَّيطرة علىٰ العالم الإسلاميّ بمباركة الغرب والأمريكان والصّهاينة ، ولإعادة أمجاد العُبيديين والقَرامِطَة والصَّفَويينَ الّذين دمروا العالم الإسلامي ، وتحالفوا مع الغرب الصّليبي ، وسَلَّمَ ابنُ العَلْقَمِي البَاطِني الخَؤُون وزير الخَليفة

(١) من قصيدة للشاعر المصري سعد درويش ، أُلقيت في مهرجان المربد السابع الّذي أُقيم في بغداد سنة ١٩٨٦م.

العباسي المستعصم بالله عبد الله بن منصور مفاتيح بغداد للمغول، الّذين قتلوا الخليفة والعلماء والأعيان، وأهلكوا الحرث والنّسل والتّاريخ يشبه بعضه بعضًا.

وتحتل إيران الصّفوية اليوم أربع عواصم عربيّة إسلاميّة كبرىٰ كان لها شأن كبير في تغيير خريطة تاريخ العالم ومسار الإنسانية: دمشق وبغداد وصنعاء وبيروت، وتتطلع إلىٰ المزيد وتستعين في تحقيق أهدافها بكل جبّار عنيد.

امتطيت صهوة الطَّائرة من مطار بغداد الدّولي مع كوكبة مباركة من أهل العلم والفضل، منهم شيخنا الحبيب المفضال شيخ كفرنبل ومعرة النّعمان خيرو الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وقصدنا بيت الله الحرام زاده الله تشريفًا وتعظيمًا وحَرَسَهُ مِنْ كل شر، حَاجِينَ مُعتَمِرين، وقد أحرمنا في جوِّ السّماء حين مرورنا فوق الميقات، ولا تَسْأل عَنْ الشَّوق الّذي نَطِيْرُ علىٰ أجنحته إلىٰ بيت الله الحرام، أوَّلِ بيتٍ وُضِعَ للنّاس، رفعَ قَواعِدَهُ سيدنا إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وجعله الله مثابة للنّاس وأمنا ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] ولا تَسْأَل عَنْ الحُبِّ الّذي تَجري أنْهُرُهُ في نُفُوسِنا وتَسْقِي شَعاب أَرْواحِنَا وعَنْ وُفود الأُنس والبَهجة والسّرور الّتي تتبوأُ عُروش قُلوبنا لأداءِ فريضةِ الحجّ والعمرة، وزيارة المسجد النَّبويّ الشّريف في المدينة المنوّرة والصّلاة فيه، والسّلام عن قربٍ علىٰ سيّدنا محمَّد بن عبد الله خاتم النّبيين وإمام المرسلين وخير خلق الله كلّهم أجمعين ﷺ.

هبطت الطّائرة في مدينة جدة، ومن هناك أقلتنا الحافلات إلىٰ مكّة المكرمة ـ حرسها الله ربّ العالمين ـ وشَرَعْنَا في أداء المناسك.

وقد بلغني ونُمِيَ إليَّ أنْ فضيلة أستاذنا الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وَفَدَ إلىٰ بيت الله الحرام حاجًّا معتمرًا مع بِعْثة الحج السّورية ، ففرحت الجَذَلَ وحَرَصْتُ كل الحِرْصِ علىٰ لقائه ، والسّلام عليه ، والإفادة منه ، والاطلاع علىٰ أحوال البلاد والعباد وما يعصف بها من جور وطغيان واستبداد بعدَ أنْ هَبَّتْ عليها الرِّيح الهوجاء الباطنيّة العَقِيمُ .

بحثت عن فضيلة الشَّيخ طويلًا بين أفواج الحجيج الّذي أَتَوْا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عميق ، تدوي حناجرهم بالتّلبيّة والتّهليل والتّكبير والذّكر والدّعاء ، يوحدون الله تعالىٰ ويعظمون شرائعه وشعائره ، وذلك طريق وحدة الأمة الإسلامية وإعادة عزها الغابر ومجدها الدّاثر ، واستنقاذ حقوقها المسلوبة وأوطانها المغصوبة وثرواتها المنهوبة .

دعوت الله تعالىٰ وسألته أن يكرمني بلقاء الشَّيخ ، والدّعاء هو العبادة ، ومفتاح السّعادة ، وبَابَةُ التَّأييد الإلهيّ ومفتاح المَدَدِ الرَّباني .

ولما سُئِلَ القائد الإسلاميّ الشَّهير موسىٰ بن نصير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فاتح المغرب والأندلس الّذي كان النَّصرُ يَسِيْرُ في رِكابه حَيْثُما سَار ، ولم يَعرف الهزيمة والانكسار عن سرّ ذلك الفلج والانتصار أجاب : «كنتُ أستعين علىٰ الأعداء في ميادين الجهاد وسوح الهيجاء بالصّبر والدّعاء» .

وفي أحد أيّام عشر ذي الحجّة ـ وهي خيرُ أيّامِ اللهِ تعالىٰ ، وبعد أداء صلاة العصر ، وقعت عيناي علىٰ الشَّيخ الجليل في المسعىٰ بين الصَّفا والمروة ، أقبلت عليه تسبقني أشواقي إليه ، وسلّمت علىٰ الشَّيخ وقبَّلت رأسه ويديه ، وبعد حديث جدّ وجيز أخبرني الشَّيخ أنَّ أزلام العصابة الغشوم الظّلوم

الّتي تحكم الشَّام وتذيق أبناءه كؤوس الحتوف وتضطرهم إلىٰ الضَّربِ في الأرضِ وركوب كل فَجّ مخوف، يراقبون الحَجِيج ويَتَتَبَّعُون خُطواتهم ولِقاءاتهم واتصالاتهم، وأشَار عليّ أنْ نَلتقي في صباح اليوم الثّاني في باب الملك عبد العزيز؛ لأن جواسيس تلك العصابة الفاجرة المجرمة الغادرة وعيونها ـ فقأ الله تعالىٰ تللك العيون ـ يغطون في سبات عميق ولا يوقظهم إلا حرُّ الظَّهيرة ولفح الهَاجرة.

صليتُ الفجر في المسجد الحرام، وقصدت الشَّيخ بعد ذلك في المكان الذّي رَغِبَ أنْ يكون اللّقاء فيه، وكان مشغولًا بالذّكر والدّعاء، وبعد فراغه أقبل عليَّ بوجهه المشرق المضيء ومحياه الكريم الباسم.

سألتُ الشَّيخ عن مسائل تتعلق بأداء المناسك وغيرها، فكان يجيب عنها علىٰ مذهب الإمام الشّافعيّ محمَّد بن إدريس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ وجزاه عن أمّة الإسلام خير الجزاء، والشَّيخ عالم راسخ بالمذهب، ووهب الله له اقتدارًا عجيبًا علىٰ عرض مسائله وتسهيلها، وربما ذكر أقوال العلماء في المدارس الفقهية الأخرىٰ، وجرىٰ بعد ذلك الحديث عن أحوال مدينة درعا وعن سياسة العصابة الحاكمة من تضليل وتجهيل وبطش وتنكيل، وكان السّؤال أيضًا عن جمهرة من إخواننا الأفاضل طلاب الشَّيخ، الّذين اعتقلتهم أجهزة الرّعب والقتل والخيانة، ذراع تلك العصابة المارقة غريبة الوجه واليد واللّسان عن الشَّام المبارك.

كان الشَّيخ يتحدث والهموم والأحزان والآلام تجوس خلال حروفه وكلماته، وتجول في عباراته وشعاب روحه وأقطار نفسه.

ذكر الشَّيخ أنَّ التَّضحيات كانت كبيرة جدًا، وأنَّ الدَّماء الّتي سالت غزيرة، وأنَّ عَدُوَّ هذه العصابة وخصمها إنَّما هم رجال الإسلام وعلماؤه العاملون ودعاته الرّبانيون، وشبابه المخلصون، وأصحاب الكلمة الحرّة المبصرة العيناء، وأن جرائمها النَّكراء مُمْتَدة في الزّمان والمكان وأنها لا تبالي بسفك الدّماء تؤيدها قوىٰ الاستكبار والظّلم العالميّة، وأنَّ الصِّراع معها جدُ طويل ولاسيما بعد أنْ استولت علىٰ مواقع القوَّة والنفوذ، ومفاصل الحكم والسّلطة، ومفاتيح الموارد البشرية بأنواعها.

وذكر الشَّيخ أنَّه بلَغه أنَّه كان هناك حديث في أوساط الأجهزة الأمنيّة بعدم السَّماح له بالعودة إلىٰ البلاد بعد أداء فريضة الحجِّ؛ لأنَّ جل المعتقلين كانوا من طلّابه وممن يفدون علىٰ دروسه، ويزورونه في بيته، ويتفقَّهون عليه.

وذكر الشَّيخ أنَّه زار مع بعض الوجهاء والتّجار الأثرياء بعض مسؤولي الأذرع الأمنيّة في المحافظة للتثبّت من هذا الأمر ومنهم مسؤول أمن الدّولة في درعا المقدّم موفّق الزّعبي أبو عزام، وجرىٰ بينهم حديث في ذلك حيث قال مسؤول الأمن وهو يكاد يتميّز غيظًا وحقدًا وضَغِيْنَة، وهذا شَأن كثير ممن ينتسبون إلىٰ أهل السّنّة، جنّدوا أنفسهم لحماية هذه العصابة الفاجرة المجرمة الغادرة، وأوغلوا في العداوة واشتطّوا في نصرة الباطل واستهوتهم الشّياطين: «بلغنا أن أكثر المعتقلين من عصابة الإخوان المسلمين كانوا يحضرون دروسك في المسجد، وربما كانوا يفدون علىٰ بيتك أيضا».

فأجابه الشَّيخ: «المساجد بيوت الله تبارك وتعالىٰ، ويحضر دروسي أناس من مشارب شتىٰ، ولا أَسألهم عن انتماءاتهم وتوجّهاتهم وفيهم أحيانا

بعض رجال أمن الدولة والمخابرات العسكريّة والأمن السّياسيّ وبعض الشّخصيّات الحزبيّة، وكان فرع الأمن السّياسيّ يومئذ يطل برأسه على مسجد المحطة (الّذي سُمي فيما بعد مسجد الشَّيخ عبد العزيز) وأنا أعلم ذلك عِلْمَ اليقين، فالدّروس مبذولةٌ للنّاس عامّة وليست محصورة في فئة دون أخرى، ولا مقصورة على جهة دون جهة، وبيوت الله يرتادها من يشاء، فإذا كان بعض الشّباب المعتقلين يحضرون هذه الدّروس والمحاضرات، فهم كغيرهم من أبناء هذا الشّعب». فكان ردُ الشَّيخ مسكتًا للمُقدم.

لم يكن الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ على الرَّغم من انشغاله بالتَّدريس والتّعليم والدّعوة والإفادة وإصلاح ذات البين بمعزل عن واقع النَّاس وهمومهم وقضاياهم وشؤونهم، إذ كان على اطّلاع على ما يجري في المحافظة خاصّة والبلد عامّة، وكان أحبابه وطلابه وإخوانه المقربون يحيطونه علمًا بالأمور المُهمّة ويستشيرونه ويستفتونه، كيف لا وهو مؤسِّس الحركة الإسلامية في حوران وعالم المحافظة وشيخها ومفتيها، وقد سُجن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٩٦٧م في سُجون الطّغاة المتجبّرين المستبدّين مع خيرة علماء الشَّام يومئذ.

كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يرى أنّ هذه العصابة الفاجرة الماكرة الغادرة تأوي إلى ركن شديد من دعم إقليميّ وعالميّ، وتحظى بتأييد كلّ شيطان مريد وتحقّق مصالح هذه القوى الظّالمة أكثر مما تحقّقه جيوشها واستخباراتها ومؤسساتها.

وكانت للشّيخ نظرات وقراءات لواقع البلد والنّهوض به وطريقة مواجهة هذه العصابة والخلاص منها، ومن ذلك التَّعاون المُثمر والتَّواصل الفَعَّال بين

العلماء العاملين الرَّبانيين والقادة المصلحين والمفكرين والمجاهدين في المحافظات كافة، وأنْ يكون هناك تنسيق مع ذوي التّوجهات الصّادقة الّذين لا يزال بعضهم في المؤسسات المؤثّرة من أجل إصلاح شؤون البلاد والخروج من ظلمات الاستبداد مع استحضار عظم التّضحيات والكيد العالميّ الكُبَّار.

سألني الشَّيخ عن أحوال الإخوة المُهَجّرِين المُطارَدِين مِنْ أبناء المحافظة الّذين شَطَّتْ بهم الدّار وهم صابرون محتسبون راضون بالأقدار، سألَ للاطمئنان عنهم ودعا لهم بخير وسألَ عن أحوال بعض العلماء والمشايخ وأوضاعهم.

تكررت هذه اللّقاءات في أجواء الحرم المكي ورحابه الطّاهرة المباركة صباحًا بعيدًا عن عيون أزلام العصابة الباطنيّة العفلقيّة. ورأيت الشَّيخ بعد ذلك في رحاب المدينة المنوّرة في مسجد النّبي ﷺ.

ولمّا أزفت ساعة الرّحيل من المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصّلاة وأتمّ التَّسليم، ودعت الشَّيخ وطلبت منه صالح الدّعاء وكان اللّقاء الثّاني في عام ٢٠٠١م في مدينة أبو ظبي قبل وفاة الشَّيخ بعام واحد كما سيأتي فيما نستقبل.

ترحّم الشَّيخ على الشّهداء ودعا الله تعالى أن يفرّج عن المعتقلين وأن يذل أعداءه وينصر أولياءه.

نَشرُ العِلم الشَّرعي

جَعَلَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ إذاعة علومِ الشّريعة الإسلاميّة الغرّاء ونشرها بين النَّاس وَكْدَهُ[1] وهجيراه[2]، ورأىٰ أنَّ هذا العمل من أجل الطّاعات وأعظم القربات إلىٰ الله تعالىٰ ربّ الأرض والسّماوات، فما ضلّ كثير من أبناء المسلمين عن سواء السّبيل ولا تنكّبوا جادّة الصّواب إلّا لبعدهم عن هذا المورد العذب السلسبيل، فتفرّقت بهم السُّبل ووقعوا في أحابيل الأهواء والغَواياتِ والأضاليل، وكانت عاقبةُ أمرهم خُسرا، وحَصَدوا الخَيْبَة والهَوان والحَسرة، وحُرِمُوا المَدَدَ الإلهي والعون والنّصرة، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

كان الشَّيخ يلقي دروسه النَّفيسة في العقيدة والفقه والتّفسير والسّيرة والحديث، وسِيَر الصَّحابة رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين، وقد تَضَوَّعَ شَذَاها في جامع المحطّة الكبير ويسمىٰ الآن جامع الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد كما ذكرت ذلك سابقًا.

وقد حوّلته صواريخ طائرات العلج النّصيريّ المجرم بشّار وأزلامه وغارات الرُّوس القتلة إلىٰ ركام، وكان يلقي هذه الدُّروس مساءَ كلّ اثنين

---

(١) الوكد: القصد والدأب، يقال: مازال ذلك وكدي، أي: قصدي ودأبي وفعلي.

(٢) الهجيرىٰ بكسر الهاء وكسر الجيم وتشديدها وفتح الراء وبعدها ألف مقصورة: الدأب والعادة والديدن يقال: هجيراه أن يفعل كذا، أي: عادته ودأبه وديدنه.

وخميس، وكان له درسٌ أسبوعي في الفقه الشّافعي في مسجد الشَّيخ خليل في درعا البلد مساءَ كلّ يوم جمعة بين المغرب والعشاء، والشَّيخ من كبار فقهاء الشافعيّة له في فهم المذهب واستحضار مسائله قدم صدق.

وكان له درس في المسجد عينه عصر كلّ يوم خميس للنّساء إيمانًا منه بوجوب تعلّم المرأة المسلمة أمور دينها والتّفقه فيه وإدراكًا منه لرسالتها في الحياة في بناء الأجيال المسلمة، الّتي تصنع تاريخ الأمة وتسمو بها إلىٰ ذُرىٰ المجد والرّفعة والعظمة، والمرأة نصف المجتمع وتربي نصفه الآخر، وتصنع الجيل الّذي يصنع للأمة السُّؤدد والمَفاخر، والحاضِرَ النَّاضِر، والمُستقبل الزَّاهر.

كما كانت للشّيخ أيضًا دروسٌ في بيته العامر بالإيمان، العابق بطيوب[1] العِلم والعرفان عقيب صلاة الفجر، يحضرها طائفة من طلبته الشّباب، وكان يعلق عليهم كبير الآمال في حمل الرّسالة الإسلاميّة والتّمكين لها في الحياة. وكانت في اللّغة العربيّة وفقه السّادة الشّافعية ومصطلح الحديث النَّبويّ الشّريف وشرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك.

لقد رأىٰ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ببصيرته النّافذة وتفكيره السّديد وعقله اللّوذعيّ الرّجيح أنَّ نشرَ العلم الشّرعيّ في الأمّة وتوجُّهَهَا إليه وإقْبالها عليه هو المَهْيَع[2] اللَّاحِب[3] والمَنهج الصّائب؛ مِنْ أجل نصرة الإسلام العظيم وتغيير حياة الأفراد والأسر والمجتمعات ودفع ما حَلَّ بِسَاحَة المسلمين من فتن ومحن

---

(١) بطيوب: جمع طيب. وهو كل ما يتطيب به من عطر وبخور وعود ونحوه.

(٢) المهيع: الطريق الواسع الواضح البين، والجمع: مهايع.

(٣) اللاحب: الطريق الواضح البين ولحب الطريق: أوضحه وبينه.

ومُلمَّات والخروج مما أحدق بهم من مصائب ونوائب ولَزَبَات[1]. وإنَّما يُراد العِلْمُ للعَمَلِ، فالعَمَل سَيد مُتَوّجٌ جَليلٌ والعِلْم خَادم له.

ولا ريبَ أنَّ الرُّكن الأوّل في حياة الأمّة هو العِلْم، وكان أوّل ما نزل من القرآن على قلب الرّسول ﷺ في غار حراء: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] إيمانًا بأنَّ العِلم فريضة محكمة من فرائض الإسلام الّذي لم يفرّق بين علم الدّنيا وعلم الدّين، بل أوصى بهما جميعا وجمع علوم الكون في آية واحدة وحثّ عليها وجعل العلم سبيل خشيته وطريق معرفته فذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ثم قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ وفي ذلك إشارة إلى علم النّبات وغرائبه وعجائبه. ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ وفي ذلك إشارة إلى علم الجيولوجيا وطبقات الأرض وأدوارها وطبقاتها، ثمّ قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ وفيها إشارة إلى علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحشرات وبهائم. ثمّ أردف ذلك كله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [الآيات من سورة فاطر: ٢٧، ٢٨].

والأمة النَّاهضة أَحَوج ما تكون إلى الخُلق القويّ المتين، والنّفس الطّموح وينبع ذلك من الإيمان العميق والثّبات الرّاسخ والتَّضْحية الكبيرة، وحرّية العقل لنقله الإبداع والابتكار، والإسلام وحده هو الّذي يكفل ذلك كلّه ويصوغ هذه النَّفس الإنسانيّة الرّفيعة الشّريفة[2].

---

(١) اللّزَبات: الشدائد.

(٢) من كلام الشَّيخ الإمام الشهيد حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وكانت دروس الشَّيخ ومحاضراته ولقاءاته تهوي إليها القلوب، وتعشقها العقول، وتستنير بها البصائر وتستأنس، تُسْتجاشُ بها العواطف والأحاسيس والمشاعر، وتستريح في رياضها النَّضرات الأفئدة والأرواح، وهي لا تخلو مِنَ الطُّرفَةِ البَارِعة والنُّكتة الرّائعة والفُكاهة الماتعة، والحِكَم والأشعار والأمثال، والسَّجع الجميل المأنوس المُحبب إلىٰ النّفوس، الّذي لا يمجّه السّمع ولا تأباه الأُذن ولا ينفر منه الذّوق السّليم، مما يُضْفِي علىٰ المجالس والدُّروس متعة وأُنسا وسُرورًا وبَهْجة ونَضَارة وحُبورًا.

وكان الشَّيخ يتشوق إلىٰ تأسيس مدرسة شرعيّة يتعلّم فيها النَّشءُ علوم الإسلام، ويتخرّج فيها الوُعاظ والفقهاء والدّعاة والخطباء، وكان يسلك إلىٰ تحقيق هذا الأمل كلّ سبيل وأحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد، فحقَّق الله تعالىٰ رجاءه واستجاب دعاءه، فأسس مدرسة الإمام النَّوويّ للعلوم الشّرعيّة، وسعىٰ في بنائها، وتفانىٰ في إنشائها، ووضع لها الخطط والمناهج والبرامج الّتي تسير بها إلىٰ غايتها المنشودة الحميدة وأهدافها المرسومة الرّشيدة.

واستطاع الشَّيخ أنْ يُزيل الصّعوبات والعقبات الّتي نَهَدَتْ له واعترضت طريقه بصبره وحِنْكَته وحلمه وأناته وحكمته... ورجاحة عقله وسديد رأيه.

وصَدَقَ المُتنبي:

الرّأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُّجعانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثَّاني

فَإِذا هُما اجتَمَعا لِنَفسٍ حُرَّةٍ بَلَغَت مِنَ العَلياءِ كُلَّ مَكانِ

وعندما أراد الشَّيخ أن يبني مدرسة الإمام النّوويّ شمّر عن ساعدِ الجِد والاجتهاد، وطَوَّف في البلاد يجمع لها المال. والمال هو الدِّعَامة الكبرىٰ في

اقتصاد الأمّة وتشييد صروح العلم، واستبحار العمران فيها. واستطاع بعد جهد دائب أنْ يَشْرع في هذا العمل الكريم.

وقد حدثني أخي الحبيب الفاضل النّبيل الأستاذ الجليل عبد الرّحمن طعمة الله أبا زيد[1] ـ وهو ابن أُخت شيخنا رَحِمَهُمَاٱللَّهُتَعَالَىٰ حدثني عن جهود الشَّيخ في بناء مدرسة الإمام النَّوويّ وقد كَتَبَ ذلك بِخَط يَدِه ومِنْه نقلت حَديثَه:

«عندما أراد الشَّيخ العمل علىٰ تأسيس ثانويّة الإمام النّووي للعلوم الشّرعيّة واستطاع بجهوده الدّؤوبة الحصول علىٰ قطعة الأرض مِن البلدية، ثمّ علىٰ ترخيص المدرسة من رئيس الوزراء (محمود الزّعبي)، جاء دور بناء المدرسة، وكان ترخيص المدرسة يحتاج الىٰ موافقة وزارة الأوقاف قبل إجراءات التّرخيص الرّوتينية من البلديّة. وعندما ذهب الشَّيخ إلىٰ وزير الأوقاف وأظنّ ذلك في عام ١٩٩٠م، جاءه وزير الأوقاف بمخطّط لبناء المدرسة،

---

(١) عبد الرّحمن طعمة الله أبا زيد، ابن أخت الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد فارق الوطن عام ١٩٧٥م، ولقي ربه بعيدًا عن وطنه عام ٢٠١٣م في مدينة صنعاء، ودُفن فيها.
حَرَمَهُ النِّظام الطّائفيّ أنْ يَعود إلىٰ ديار الشَّام المباركة وإلىٰ مدينته الّتي تضمّخت بدماء الشّهداء أذرِعات العزّ والتَّضحية والفِداء. كان الأستاذ أبو محمَّد من كرام أهل الإسلام اعتقادًا وعبادةً وأخلاقًا وبذلًا وجودًا وسخاءً، سليم دواعي الصّدر مَوطأ الأكناف سهلًا مُحَبَّبًا يَحرص علىٰ إخوانه، ويسعىٰ في قضاء حاجاتهم والحدب عليهم وإرساء قواعد الإخاء بينهم وتقديم العون إليهم ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا، وعندما أوقد أطفال حوران مصابيح الأمل بأناملهم الغضّة الّتي خطّت عبارات سقوط الطَّاغية، فرحَ أبو محمَّد كثيرًا، واستنار محياه وقدَّم للثورة كل ما في وسعه، ولا أنسىٰ خروجه في المظاهرات الّتي انطلقت في ساحة التَّغيير في صنعاء وذهابه إلىٰ سفارة الأشقياء النّصيريين ورفعه علم الثّورة.
وكان يقول الطّريق طويلة جدًا وسنقدم خيرة رجالنا وزهرة شبابنا وصفوة أبنائنا، وستتداعىٰ علينا كل قوىٰ الإجرام في العالم لتثبيت أركان هذا النّظام النّصيريّ العفلقيّ الخؤون الكفور الغدار. وستشرق بعد ذلك شمس الانتصار.

وكان كبيرًا جدًا يفوق حاجة المنطقة ربما بخمسة أضعاف، وذلك مِنْ بَابِ تعجيز الشَّيخ عن المُضي في هذا المشروع الحيويّ الكبير، وقعت محاولات مع الوزير بالعمل على تصغير مخطّط البناء بما يناسب الحاجة.

ولكن الوزير أَصَرَّ على ذلك المُخطّط إصرارًا عجيبًا، فما كان من الشَّيخ إلا أنْ أخذ المخطّط وقال له: (والله لو وصل الأمر إلى أن أبيع جبتي وعمامتي لأعملنَّ على إتمام هذا المشروع). وهكذا كان.

شمر الشَّيخ عن ساعد الجدِّ وشكّل لجنة برئاسته من المحسنين في المنطقة الّذين لم يبخلوا على هذا المشروع وذلك لثقتهم العالية بالشَّيخ. كما أنّه ذهب إلى السّعوديّة ودول الخليج وجمع ما يكفي لإتمام المشروع. وهذا ما سمعته من الشَّيخ (وهو خالي وعمّ زوجتي أم محمّد). وعندما زارني في مدينة الشّارقة في الإمارات عام ١٩٩٢م، وهو يجمع التّبرعات لبناء المدرسة، وبعد أنْ أتمّ الشَّيخ بناء المدرسة بدأت الدّراسة فيها، وبعد سنوات جاء إلى دولة الإمارات في رمضان بدعوة من رئيس الدولة الشَّيخ زايد، وقابلته وسألته: هل تقدّم لكم الدّولة في سوريا أيّ مساعدة للمدرسة؟ قال لي ضاحكًا: لقد قدمت لنا هذه السَّنة مساعدة قيمة (٢٠) طالبًا من جزر القمر، علينا تدريسهم وإسكانهم وإطعامهم.

وكان هذا الحديث في بيتي وعندما أتَّم كلامه قال لي ناولني الهاتف واتصل بالمدرسة وتكلم مع المشرف عليها وأوصاه بالاهتمام بأمر هؤلاء الطّلاب، والاعتناء بهم، وتوفير الطّعام الجيد والتّدفئة المناسبة لهم حيث كان الجوّ باردًا في فصل الشّتاء. فقد كانت الدّولة السّوريّة لا تقدم للمدرسة أي مساعدة، فالمساعدات للمؤسّسات الحكوميّة الّتي تعادي الإسلام فقط».

انتهى كلام الأستاذ عبد الرّحمن أبا زيد، بَرَّدَ الله تعالى مَضْجَعه، وأسكنه فسيح جناته، وأَنْعَمَ عليه بكمال رضوانه وشَمِلَه بعظيم إحسانه.

وأذكر أنَّ الشَّيخ عبد العزيز زار الإمارات قبل وفاته بعام، كنتُ أعمل حينئذٍ في مركز جمعة الماجد للثّقافة والتّراث في دُبي، وزُرته مرَّتين في أبو ظبي مع بعض الأحبّة، كان ذلك في شهر رمضان بعد أنْ وجّهت له وزارة الأوقاف في الدّولة الإماراتيّة دعوة في شهر رمضان لإلقاء الدُّروس في المساجد، فمرض الشَّيخ ودخل المستشفى، ومكث فيه أيامًا ولمّا سأله أحد الأحبّة عن مساعدات الدَّولة لمدرسة الإمام النّووي تبسّم الشَّيخ ضاحكًا، وذلك شأنه في كثير من المواقف الصّعبة الحرجة، وقال:

«**لقد زرت رئيس الوزراء محمود الزّعبي قبل أنْ ينتحر (وتبسم الشَّيخ) أكثر من خمس عشرة مرةً، أذهبُ من درعا إلى دمشق وطلبت منه، وهو من أبناء حوران، أنّ يقدم العون للمدرسة والمدد، وكان يعدني في كل مرة، فما بَضَّتْ يده بدرهم ولا دينار ولا ليرة ولا دولار، والله ما أعطاني فلسًا واحدًا، وكانت مواعيده مواعيد عرقوب، وكنت أدفع أجرة السّيارة في الذّهاب والإياب من جيبي، لقد أفضى إلى ما قدَّم** ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]».

وهكذا كان كثيرٌ من أبناءِ السُّنة مساميرَ في أحذية طُغاة النِّظام الطّائفي، يُذيقون أبناء جلدتهم سوء العذاب، ويهلكون الحرث والنَّسل، فإذا ما انتهت مهمة أُولئك الأذناب وحان وقت الحساب اغتالهم أُولئك الباطنيون الأوغاد ورحلوا غير مأسوف عليهم، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

لا شكّ في أنَّ العلمَ يَهُدُّ عُروش الظّالمين، ويَقُضُّ مضاجعهم، ويسيل مدامعهم، ويُخرس مدافعهم، ويحرّك مواجعهم. ولذلك دأب النّظام النُّصيري

العَفْلَقِيُّ[1] الكفور المجرم على تربية الأجيال على موائد الجهالة والغواية والضّلالة وإقصائها عن موارد العلم الّذي يورث الأجيال الأنفة والشّموخ والكبرياء، ويحفزها إلى منازلة الطّغاة والعتاة والغزاة وتقويض عروشهم وسحق جيوشهم.

فالاستبداد عدو العلم والحرية والكرامة والإنسانية. قاتل الله الظّالمين والمجرمين والمُبْطلين ودمر عليهم، فالعلم عدوهم اللّدود وخصمهم الحقود، وكمْ مِنْ جَهُول تبوأ المناصب وارتقى المراتب، وهو حاضر غائب في كنف هذه العصابة الباطنية النّصيريّة العفلقيّة والأنظمة الإرهابيّة القمعيّة، الّتي ولاها على بلاد المسلمين اليهود وعُباد الصّليب لتبقى في أمر مريج، تصدح حناجر أبنائها للمجرمين بالمدح والثّناء والأناشيد والأهازيج.

بلادُ الشَّـــام ويحكَ ما دَهَاهَا ... أَحَـقٌّ أنَّـهـا دَرَسَـــتْ[2] أحـقُ

بِـلـيـلٍ لـلـقـذائـفِ والـمَـنَـايَـا ... وراء سَـــمائِه خطــفٌ وصـــعقُ

ولـلـمُسْـــتـعـمـريـن وإنْ أَلانـوا ... قُلوبٌ كَالحِجـــــــارَةِ لا تَرِقُّ

دَمُ الـثُـوّارِ تَـعـرِفُـهُ فـرنســـا ... وَتَـعـلَـمُ أَنَّـهُ نـورٌ وَحَـقُ

ولـلـحـريّـة الـحـمـراء بـابٌ ... بـكـلِّ يَـدٍ مضَـــرَّجَـةٍ يُـدقُّ[3]

---

(١) نسبة إلى مؤسس حزب البعث ميشيل عَفْلق، ولكلمة عفلق معنى مذموم مقبوح. مرذول: يُراجع في القاموس المحيط أو تاج العروس.

(٢) درست الديار: تقادم عهدها ودرس الثوب: بلي. والأطلال الدوارس التي بليت وتقادم عهدها.

(٣) من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقي يصف فيها عدوان فرنسا على عاصمة بني أُمية دمشق، وهاهم تلاميذ فرنسا المجرمون الباطنيون النّصيريّون وأذنابهم على سَنَنِها في الإجرام والقتل والتّدمير.

كان الشَّيخ يطمح إلىٰ تربية جيلٍ عالمٍ عاملٍ مجاهدٍ، ويطمع في أنْ تكون لهذا الجيل قدم صدق في الدّعوة إلىٰ الله تعالىٰ وإخراج النَّاس من ظلمات الجهل وليل الطّغيان والاستبداد والاستعباد إلىٰ نور الإيمان والحق والحرّيّة والرَّشاد.

ولا أدري ما دهىٰ هذه المدرسة وما حَلَّ بساحتها من دمار وخراب بعد هذه الهجمات التّتريّة النُّصيريّة والرُّوسية والمجوسيّة علىٰ بلاد الشّام.

الأمْرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنْكرِ

كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ غيورًا على حُرُمات الإسلام والمسلمينَ، معظّمًا شعائرَ الله ربِّ العالمينَ، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. فإذا ما رأى الشَّيخ منكرًا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ، وانْكَسَفتْ شَمْسُ سُروره، وتَكَدَّر خاطره، وغاضَ ماءُ حُبُورهِ، وسَارع إلى إنكاره، وسعى في إزالته، وصدع بكلمة الحقّ غير هَيّابٍ ولا وَجِلٍ رغبًا في ثواب الله تعالى ورَهبًا من عقابه.

وكان الشَّيخ يُبيّن في دُرُوسه ومحاضراته وخُطبه أنّ المنْكر الأكبر في حياة المسلمين هو فصل الإسلام عن الدَّولة، وإبْعادُ الكتاب والسُّنَّة عن الحُكم والقيادة، وتَضليلُ الأمة وتجهيلها، فغابت عنها شمس السّؤدد والعزة والرِّيادة، ولمْ تبق لها شوكة ولا قوّة ولا صولة ولا سيادة، وسُرِقَ درهمها ودينارها، وصُودِرَ قرارها، كما أنَّ المعروف الأكبر هو العودة إلى القرآن والسُّنة ونهج السّلف الصّالح، وإقصاء الشَّرائع الوضعيّة والقوانين الأرضيّة الّتي قادت الأمّة إلى الخَسار والمَعَاطب والمَهالك، واضطرتها إلى أضيق الطّرق والمسالك، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] كان الشَّيخ يأمل أنْ يرى شريعة الإسلام تسود وتقود، وتعلو لها الرّايات والألوية والبنود، واستحوذت هذه الأُمنية على قلبه، وملأتْ أقطار نفسه وشِعاب روحه وصحبته كظلّه، وعاشت معه في يقظته ومنامه وخلواته وجلواته.

إذا تعـالىٰ نـداءُ اللهِ في وطنٍ حَسِبْتُ أَرْجَاءَهُ مِنْ لُبِّ أوطاني

وقدْ فَشَتْ في المجتمع أمراضٌ وأسقامٌ وعللٌ جِسام استطارَ شرّها، واستطالت أذيتها، وعمّ ضررها، منها: أكلُ أموال اليتامىٰ ظلما، وحِرمانُ المرأةِ من الميراث، وانتشار الرِّبا انتشار النَّار في الهشيم، والتَّهاون في أداء الصّلوات المكتوبات، والمجاهرة بالإفطار في رمضان، والتَّقاعس عن أداء الزّكاة، وتبرّج النِّساء واختلاطهنّ بالرّجال، وخُرُوجهنّ كاسيات عاريات مميلات مائلات وغير ذلك من المنكرات.

دأبَ الشَّيخ علىٰ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ولمْ يَهن ولمْ يَضعُفْ، ولمْ تَخبُ في نفسه جَذوةُ الإصلاحِ، شِعارُه: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وكمْ مِنْ عادة مرذولة استُؤصلتْ شَأْفتها، وخُلقٍ ذَميم اجْتُثَ مِنْ واقع النَّاس، ومسلكٍ شائنٍ قبيح هجره فاعلوه بحكمة الشَّيخ وصبره ورَوِيَّته...

وكان رحمه الله إذا ارْعَوىٰ النَّاس عن منكرٍ فعلوه استنار وجهه وعُرِفَ البِشْرُ في مُحياه، وفاضت نفسه بالسّرور، وحَمِدَ الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

كنتُ أركبُ معه يومًا في سيارةٍ يقودها أحدُ تلامذته فأمرهُ الشَّيخ بالوقوف أمام محل تجاري، ونَزَلَ الشَّيخ إلىٰ صاحب الدُّكان، وتبعناه فرحب بالشَّيخ ترحيبًا عظيمًا، واحتفىٰ به كثيرًا، وأَخذَ الشَّيخ يأمره وينهاه وهو يقول: سمعًا وطاعةً حبًا وكرامة، لنْ أفعل ذلك أبدًا.

وكان الرّجل يبيع الدُّخان ويَتَّجِرُ بِهِ، والشَّيخ يرىٰ حرمة التَّدخين وحرمة بيعه وشرائه وأنَّه سرطان فتاكٌ عدا علىٰ أرواح النَّاس وأموالهم، وأوردهم

الهلاك والخُسْران، وجَرَّ عليهم شرورا كثيرة وآفاتٍ مستطيرة، وتُرَوِجُ له وسائل إعلام ماكرة غادرة وشركاتٌ عالمية فاجرة.

وعَلِمنا أنَّ الرَّجلَ وَفىٰ بعهده، وأقلعَ عن الاتّجارِ بالدُّخان، فدعا له الشَّيخ بالبركة والتّوفيق والرِّزق الحلال وأنْ يدفع الله عنه الفقر والفاقة والشّدائد والأهوال، وأنْ يبارك الله له في الأهل والأموال.

كان الشَّيخ يزور مزارع (التَّبغ) في تل شهاب وغيرها، ويكرمُ أصحابُها وِفَادَتَهُ ويُصغُون إليه وهو يَنْهاهم عن زراعة التَّبغ والاتجار به، وقدْ وَجَدَ عند بعضهم آذانًا مُصغية.

رأيتُ الشَّيخ يومًا يُحاور أحد الأطباء، وكان هذا الطّبيب المسكين الطَّيبُ مبْتلىٰ بالتّدخين، مدمنًا عليه لا تنطفئ سيجارة حتىٰ يوقد أخرىٰ، يسعىٰ إلىٰ حتفه بظلفه، ويُحرق نفسه بيده، قال له الشَّيخ مبتسمًا: «يا سعادة الطّبيب اذكر لنا شيئا من فوائد التَّدخين فأنتم معاشر الأطباء أعرف النَّاس بهذه الفوائد وأدراهم بمنافعه، ولولا هذه المنافع ما انعقدت أواصر الصّداقة بينكم وبينه».

فتبسم الطّبيب ضاحكًا، وقال وهو يسعل والدُّخان يخرج من منخريه: والله يا فضيلة الشَّيخ لا أعلمُ له فائدة واحدة أو منفعة من المنافع، اللّهم إلا السُّعال وإهلاك الأنفس وإتلاف الأموال وإزعاج الجُلاس والزّوج والأطفال، عافاكم الله تعالىٰ من هذا البلاء، ولكني امرؤ غلبته شهوته، فضعفتْ همّته، وأبلس وانقطعت حجته، ووقعتُ في أَسْرِهِ عندما كنت صغيرًا في المرحلة الابتدائية نتتبع أعقاب السّجائر الملقاة علىٰ الأرض مع أصحابي، وصحبتها بعد ذلك.

وعظه الشَّيخ ونصح له، وقال له بأُسلوبه العَذْبِ المحبب القريب من القلوب: أنتم معاشر الأطباء زينة البلاد والأسوة الطَّيبة للناس، والنَّاس بكم يقتدون.

وكنتُ يومًا في صُحبة الشَّيخ عبد العزيز في أحد المجالس، فأشعل أحد الحاضرين سيجارته، وأخذ دُخانها يتثاءب في سماء المجلس، يسمم هواءه، ويُعكرُ رُواءَهُ، ويُكدر بهاءه، ويخدش حَياءه، فقال له الشَّيخ: أبا فلان، قال: نعم سيدي الشَّيخ، فقال له الشَّيخ متوددًا إليه: أسألكَ وأنت الرّجل الطّيب المبارك: لو أنَّ رجلًا أثيرًا لديك، مدّ يده إلىٰ جيبك من غير أنْ تأذن له، ونسل منك خمس ليرات، (كانت يومئذٍ مبلغا ذا بالٍ) فماذا تفعل؟ قال: أجدُ في نفسي عليه وأتضايق، قال الشَّيخ: فإذا كرّر فعلته تلك، فماذا تصنع؟ قال: يا سيدي سأهجره ولن أُكلمه أبدًا، قال له الشَّيخ بتلطّفٍ: وهذا الدّخان منذ متىٰ صديقك؟ قال يا سيدنا: منذ سنين طويلة، قال الشَّيخ: صديق يسرقُ مالكَ وقوتَ عِيالك ويؤذيك في صحّتك وبدنك، وتُصرُ علىٰ صحبته واستضافته وإكرام وفادته؟ قال يا شيخي: لا أستطيع مخالفة أمره إذا دعاني، عَلِقْتُه منذ الصّغر، ويصعب عليّ مفارقته عند الكبر، فنصح له الشَّيخ ودعا له.

وكان تبرجُ النّساء واختلاطهن بالرّجال في الأفراح والمناسبات وما يُفضي إليه هذا الأمر من مفاسد وشرور وفتن وأوْزار محط عناية الشَّيخ وموضع اهتمامه، حيث فشا في النَّاس في الأعراس ما يُعرف بالدّبكة المختلطة (الحَبل المُوَدَّع)، إذْ ينتظم الرّجال والنّساء معًا في صفٍ واحد، ويَأخُذُ بعضهم بأيدي بعض، وتلتصق الأكتاف بالأكتاف، وتتمايل الأعجاز والأرداف، ويَعزف عازف المزمار، ويغنّي المغنون غناء يفيض بوصف المحاسن ونعت المفاتن، وذكر

الخدود والقدود وتتحطم الحواجز والقيود وتهيج الشّهوات ويغيض الحياء، ويصول الشّيطان ويجول بلا حدود، ويدعو إلىٰ السُّوء والمنكر والفحشاء.

سَمعتُ الشَّيخ يومًا في خطبة الجمعة علىٰ المنبر وهو يتكلم عن هذا الموضوع، ويُبيّنُ المفاسد والمضارّ الّتي يفضي إليها هذا المسلك الشّائن، ويقول: أيها النَّاس اتقوا الله في أبنائكم وبناتكم وأعراضكم، وذروا هذه العادة المقبوحة والأعراف المرذولة الّتي يأباها الشَّرع الإسلامي القويم، ويَنْبذها العقل المستقيم ويَمُجها الخُلق الكريم، وإنَّه مَنْ رضيَ بالحبل المُوَدَّع فهو للإسلام قدْ وَدَّع. وقَدْ حفظنا هذه العبارة من الشَّيخ وكنّا نُرَددها ونُكررها في الحفلات والأفراح، ونُحذر النَّاس من هذا الاختلاط الآثم الّذي استفاضت شروره، وعَظُمت أوزاره، وكَثُرت أضراره، ونقول للنّاس ما قاله الشَّيخ.

كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُكرر هذين البيتين وكان يحفظ شعرًا كثيرا من عيون أشعار العرب يستشهد به في المناسبات، وهما:

مررتُ علىٰ المُروءةِ وهِي تبكي فقلت: عَلامَ تَنْتحب الفتاة

فقالتْ: كيف لا أبكي وأهلي جميعًا دون أهل الأرض ماتوا

عاد الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بعد صلاة العشاء في إحدىٰ الأماسي، فألفىٰ عُرسًا، ووجد الرّجال والنّساء في حبلٍ طويل ممتد تتشابك أيديهم، وتتزاحم مناكبهم، ويتمايلون يمنة ويسرة وتتحرك الأبدان والنُّهود، وقد أخذتهم حُمّىٰ الطّرب واستنفرت جيوش نشوته وسيطرت علىٰ قلوبهم، واستبدت بنفوسهم، والمزمار يعلو صوته بأنغام متنوعة الألوان، والمغني تشدو حنجرته بالألحان، والشّيطان يصول ويجول في المكان، وكان ذلك في السَّاحة القريبة من بيت الشَّيخ،

وكانت ساحة واسعة، وكان الحاضرون يحتفون بعرس أحد الإخوة الشَّباب الّذين نَزَحُوا مِنْ هضبة الجولان عام ١٩٦٧م. بعد أنْ باعها العلج النّصيري الباطني وزير الدِّفاع يومئذٍ حافظ الأسد للصّهاينة بثمن بخس كرسيٍّ منسوج من دماء الشّعب السّوري وجماجمه، وأشلاء أبنائه وأصلاب رجاله وترائب نسائه.

يمّم الشَّيخ الجموعَ المُحتشدة المحتفلة وقد هاله ما رأىٰ، وهو ينتفضُ من شدة الغضب، ودَلَفَ إلىٰ عازف المزمار وأخرجه من وسط الدَّبكة الشّعبية، فانقطع الغناء، وسكت المغنون والمغنيات، وتفرّقت النَّاس.

وصاح شيخ عجوز يهش بعصاه علىٰ الأيام يوشك أنْ يزوره حِمام الموت والشَّيخ يسمعه، فقال: سامحك الله يا شيخ وغفر الله تعالىٰ لك وعفا عنك، لقد نغّصت علىٰ الشّباب والشّابات فرحتهم، وكدّرت خواطرهم، وشتّت شملهم، وضاعت عليهم فرصة من فرص العمر كانوا يترقبونها بفارغ الصّبر.

قال شيخنا: نظرتُ إلىٰ هذا الشَّيخ العجوز وقد شاب رأسه، ووهن العظم منه، ويبس جلده، وعجبت لحاله وغفلته عن عاقبة مآله، وغلبة الشّيطان عليه في أقواله وأحواله.

كنا يومًا نصلّي الظّهر في المسجد القريب من مكتب البريد، وكان مسجدًا كبيرًا عظيمًا رائعًا قديم البناء، له ساحة جميلة وفيه نافورة ماء، وذلك قبل أنْ يُهدم المسجد ويبنىٰ علىٰ أشلائه وأنقاضه محال تجارية لوزارة الأوقاف، ويُشيد فوقها مسجد صغير يصلي فيه النَّاس، ولا سيما أهل السّوق، فانطلق صوت المذياع بالغناء من أحد المحال القريبة من المسجد وأخذ يشوش علىٰ المصلين، ويفسد عليهم خشوعهم وسجودهم وركوعهم، فرأيتُ الشَّيخ يخرج من المسجد مسرعًا ترتسم علىٰ مُحياه أمارات الألم، ويقصد أصحاب ذلك المحل

التّجاري ، فلما رأوا الشَّيخ قادمًا إليهم استحيوا وأغلقوا المذياع .

سألَ أحد الإخوة الشَّيخ وهو يمازحه وقال له: شيخنا الفاضل أنت الّذي تفيض رقة وتسيل رأفةً ورحمةً وودًا ، هل ضربتَ أحدًا يومًا بيدك ؟

تبسّم الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وقال: نعم ، كانت لنا جارة كريمة الخُلق ، تُوفي عنها زوجها وخلّف بنتًا نشأت يتيمة ، وأصبحت بعد ذلك في سن الزّواج ، وجاءتني أمّها ذات يوم وقالت: يا شيخي هناك معضلة أرجو أنْ تُعينني علىٰ حلّها وشرحت مشكلتها ، وخلاصتها أنَّ فتًى شابًا يتدفق حيويّة وقوّة وعنفوانا يأتي إلىٰ البيت ويجلس مع الفتاة ويتبادلان الأحاديث والنِّكات ، ويتشعب بهما الكلام ، وهي تخاف علىٰ ابنتها ، وقد نَهَتْهُ ونَهَتها فلم يستجيبا ، فقال لها الشَّيخ: إذا جاء فأخبريني .

وحضر الفتىٰ وتسللت الأم تسلل القَطَا سريعة الخُطا ، وأخبرت الشَّيخ ورجعت ، ولبس الشَّيخ جبته وعمامته وقرع الباب وكان الفتىٰ والفتاة يجلسان في فناء البيت ، وفتحت الأم الباب وسقط في يد الفتىٰ وهو يَرَىٰ الشَّيخ يعلوه الوقار وتكسوه حُلل المهابة ، وهَبَّ واقفًا وسأله الشَّيخ: ماذا تصنع هنا ؟ فوجمَ ولمْ يُحِرْ جَوابًا ، وامْتقع لونه ، وارتعدتْ فرائصه ، ولطمه الشَّيخ علىٰ وجهه لطمةً قويةً ، وفرَّ الفتىٰ لا يَلوِي علىٰ شيء ودخلتْ الفتاة خِدرها مذعورة وانتهت المعضلة . وتزوج الفتىٰ بعد ذلك فتاة أخرىٰ ، وتزوجت الفتاة .

يقول هذا الشّاب بعد ذلك بأعوام بعد أنْ تزوج: لطمني الأساتذة في المدارس وذقت طعم الضّرب ، ولكنّي لا أزال أجد حرارة لطمة الشَّيخ في وجهي ، وكنتُ إذا رأيته بعد ذلك اسْتحييتُ منه .

وسأله أحد الإخوة يوما عن قصة عرس انفض كل من وُجد فيه في إحدىٰ

اللّيالي ، فضحك الشَّيخ وكان ذلك قبل أنْ تُنار المدن والشّوارع بالكهرباء ، ولا يزال النَّاس يستضيؤون بالمصابيح ، وفي الأعراس كان النَّاس يقفون في صفين متقابلين طويلين وتلتهبُ الأكف بالتّصفيق .

وجرت العادة أنْ يرقص رجل وامرأة معًا بالسّيوف بين الصّفين تربطهما أواصر القربىٰ ، قال الشَّيخ: ونَهَيتُ أقاربي عن ذلك وحذرتهم العاقبة ، وأمرتهم بالمعروف وزينت لهم الطّاعة . وفي إحدىٰ اللّيالي خرجت مع الشَّيخ سليم المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فقال: يبدو أن هناك عرسا عند أقاربكم وأسمعُ الأصوات . أصوات الأكف بالتّصفيق والحُداء ، فقلت له: نهيتهم ولا إخالهم يفعلون . فقال: بل فعلوا! فقال الشَّيخ عبد العزيز: فغضبت غضبًا شديدًا ، وأخذتُ عصًا غليظة من أحد المحال التّجارية القريبة من المسجد وأخفيتها تحت جبتي ، ويمّمت شطر العرس . وكان الأمر كما قال الشَّيخ سليم ، ورأيت فتاتين من أقاربي ترقصان مع أبناء عمومتهما بالسّيوف ، وحضر العرس رئيس مخفر الشّرطة وجنوده والنَّاس في زحام شديد ، فاتّجهت نحو المصباح وهَويتُ بالعصا عليه ، وضربته بكل ما أُوتيت من قوة فأصبح جذاذًا ، وهرب الحاضرون ومعهم رئيس الشّرطة ورجاله والنَّاس لا يدرون ماذا حصل .

وكنتُ أرسل رسائلي بعد ذلك عند الأفراح: (يُسلّم عليكم مصباح فلان ، عُرسٌ مباركٌ) . وقُطع دابر تلك العادة . وهناك حكايات ومواقف أُمسكُ عنها خشية الإطالة والملالة .

الشَّيخ والمناسبات الاجتماعيّة

كان الشَّيخ بحكمته المعهودة ومبادراته المحمودة وزياراته المشهودة يَهْتَبِلُ المناسبات الاجتماعية بأنواعها، ويغتنم كل فرصة مناسبة لإدخال السُّرور على قلوب النَّاس، ومداواة كلومهم، وتخفيف آلامهم وهمومهم، وإزالة أحزانهم وغمومهم، وقضاء حاجاتهم وتنفيس كرباتهم، لا يَألو في ذلك جهدًا.

فإذا ما رفرفت رايات الأفراح وألوية السّرور وخفقت فوق رؤوس أسرة من الأُسر بنجاح أو نكاح أو عودة مسافر غريب أو شفاء حبيب أو نجاة عزيز من كرب أصابه أو مصاب أَلَمَّ به وغير ذلك، كان الشَّيخ صاحبَ القِدْح المُعَلّى في وُفود مواكب البهجة والحبور على تلك الأُسر الّتي تفرح بزيارته وتبتهجُ وتُسَرُّ.

ولا تزال ترتسم في مخيلتي تلك الصّور الرّائعة والمواقف النّبيلة والإطلالات البهيّة للشّيخ في هذه المناسبات وأمثالها، فما أكثر عقود الزّواج الّتي يسارع الشَّيخ فيها ويعقدها للشّباب ويجريها، وكنت واحدًا منهم، فلّما قدر الله ﷻ إجراء عقد زواجي كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حاضرًا، وأجرى صيغة العقد، وكان الفرح يغمر نفسه الكريمة، وكان البِشرُ يفيض من وجنتيه، وكان لكلماته اللّطيفة وتوجيهاته المُنِيفة ودعواته المباركات أثرٌ أيُّ أثرٍ، جزاه الله خير الجزاء، وكانت تتوافد إلى خاطره الأمثال والأشعار والحكم، وتسيل على لسانه كما يسيل الماء العذب النّمير، يقدح زنادها حبور يملأ جوانحه، فيَروي العِطَاش، ويجدون لذته وبُرودته في أفئدتهم.

ولما تزوجت حضر الشَّيخ حفل زفافي المتواضع مع ثلة مباركة طيبة من ذوي العلم والخير والصَّلاح ، في يوم جمعة مبارك ميمون ، ففرح أهلي فرحًا عظيمًا ، وسُر كلُّ من حضر ، وفاضت علىٰ لسانه آياتُ التّنزيل الحكيم وأحاديث النّبيّ الكريم ﷺ في هذه المناسبة الجليلة ، وأبدىٰ الشَّيخ إعجابه بطريقة الاحتفال الّتي خلت من المخالفات الشّرعية الّتي تعج بها الأعراس عادة من اختلاط مشين وموسيقا صاخبة وغناء ماجن وغير ذلك .

وفوجئتُ بعد يومين بقدوم الشَّيخ مباركا يصحبه بعض الإخوة الأعزة الأفاضل ، ومعه هدايا ثمينة كان يحملها أحد الإخوة في سيارته ، وقال: «هذا شيءٌ جادت به نفوس إخوانك المُحبين تعبيرًا عن حبهم لك وفرحهم بزواجك» . فلما رأيتها قلت: «يا سيدي هذا شيء كثير» . فقال: «هذا شيء قليل نقدمه هدية لمن نحبّه» .

لقد كان هذا دأب الشَّيخ مع طلبته وإخوانه ومُريديه ومحبيه وأبناء مجتمعه الّذي يعيش فيه ، وكانت المناسبات والمجالس والأفراح تَرتدي بُرود بهائها وحُلل جمالها وروائها بوجوده فيها وإقباله عليها .

وكان الشَّيخ أيضا يواسي المصابين ، ويُعزي المكلومين ، وينفس كربات المكروبين ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا . كان يحضر التعازي ومجالس الأحزان والأتراح ، يَعظُ ويَنْصحُ ويُبينُ أحكام الشّريعة السّمحة الغراء ، ويُوصي بالاحتساب والصّبر ، ويُبينُ ما أعده الله تعالىٰ للصابرين المُحتسبين من جزيل الثّواب وعظيم الأجر ، فَيَهطل الرِّضَا واليقين في جذور قلوب المصابين ، ويجدون في كلماته وعظاته عزاء أيَّ عزاء بفقد الأحبة الأعزاء . وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينهىٰ عن منكرات الأتراح والتَّعازي ومنها الدّخان الّذي يُقدم للمُعزِين ، وفتح

أجهزة التَّسجيل الّتي تَجودُ بتلاوة آيات القرآن العظيم، والحضور في غفلة عن سماعها والإنصات إليها وتدبر معانيها والتَّفكر في مقاصدها ومراميها، يخوضون في أمور دنياهم ويغفلون عن الاستعداد لأخراهم والدّعاء لموتاهم، وكان يَنهىٰ عن النّياحة ولطم الخدود وشق الجيوب وغير ذلك مما يخالف أحكام الإسلام، وقد دَرَبَ النَّاس عليها، فأصبح ذلك إرثًا اجتماعيا يتناقله الأبناء عن الآباء.

وأما سَعي الشَّيخ في تفريج هموم المهمومين وتخفيف معاناتهم وتنفيس كرباتهم فالكلام فيه يَطول ويَعْرفه كلّ من صحب الشَّيخ أو كان قريبًا منه، وكان الشَّيخ يجدُ في قضاء حاجات النَّاس لذّةً عظيمة لأنَّ في قضاء حوائج النَّاس لذّةً لا يعرفها إلا من جربها وهي من أعظم القربات إلىٰ الله تعالىٰ ربّ العالمين.

فكم مِن مظلومٍ مَهِيضِ الجناح بذل الشَّيخ جاهه لكشف ظلمات الظُّلمِ عنهُ، وكم من مريض طال مرضه ومات طبيبه والعُوَّدُ[1] سعىٰ إليه الشَّيخ يُخفف عنه ما يجدهُ من ألم وسقم، وكم من سجين سُجن ظلمًا وعدوانًا، ولُفقت له التُّهم وهو منها براء سعىٰ الشَّيخ للإفراج عنه وعودته إلىٰ أمه وأبيه وزوجته وبنيه وفصيلته الّتي تؤويه بعد أنْ غابت عنه نصرة أهله وعِترته وعشيرته فلم يَجرؤ أحد علىٰ السّؤال عنه وتتبع أخباره ومعرفة مصيره مخافة أنْ يَمسَّه سُوء العذاب، وأنْ تنهشه الكلاب المعلمة علىٰ أكل لحوم الأبرياء وسفك دماء الصّلحاء، وانتهاك حرمات العلماء، ولمْ يَسلَمْ من إجرامهم العجزة والنّساء والأطفال.

ولو تركت للقلم العنان في الكلام علىٰ جهود الشَّيخ في هذا الباب لطال

---

(١) العُوَّدُ: الزّوار.

حبل القول، وسأكتفي بذكر حادثتين فقط تدلان على ما بذله الشَّيخ من مساع محمودة مباركة في هذا السّبيل.

أما الحادثة الأولى فتتعلق بفتًى فلسطيني كان يَدْرس في جامعة دمشق في قسم اللّغة العربيّة، وقد تَخرّجتُ في هذا القسم قَبْله بثلاث سنوات، قدم أبوه من الأردن بعد فتنة أيلول السّوداء الكالحة عام ١٩٧٠م، الّتي ضَرِيتْ نَارُهَا وقوي سُعارها بين النّظام الأردني والفدائيين الفلسطينيين في الأردن، وكان هذا الشَّاب وحيدًا لوالديه، وقد زوجه أبوه الّذي كان يعمل في منظمة (فتح) صغيرًا، وعندما كان في السّنة الجامعية الأخيرة (السّنة الرّابعة) كانت ابنته في الصّف الأول الابتدائي اعتقل هذا الشَّاب عام ١٩٧٩م في الحرم الجامعي في كلية الآداب قسم اللّغة العربيّة، وسبب اعتقاله لحيته!

نعم لحيته الّتي كانت تَزِين وَجهه، ولمْ يَكن له علاقة بالسّياسة والأحزاب والمنظمات، ولا يدري من أمرها شيئًا، وكان يَفِدُ عليَّ زائرًا أحيانًا لأساعده في حل بعض مشكلات النّحو وقضاياه الّتي يستعصي عليه فهمها، ولا تُسلم إليه قيادها.

مّرَّ على أُسرته أسبوع ثقيل كئيب، أبوه في جنوب لبنان بعد أنْ طُرِدَت المقاومة الفلسطينية من الأردن وثُغور الجولان، وأُمه المسكينة في درعا البلد لا تعرف من يسعى في كشف كُربتها، وزوجه المُعذَّبة بغياب زوجها مع صغارها تبكي ليل نهار وتَسُحُ الدَّمع الغزيز المِدرار.

ذهبت أم الفتى إلى الشَّيخ تتوسل إليه بدموعها وتَسْتشفع بطول غربتها، وحدثته عن اعتقال ولدها، وبسطتْ له قضيتها، فرق لها الشَّيخ، وأشفق عليها، وتألم لمصابها، وذلك طبعٌ فيه وجِبِلةٌ، وذَهبَ إلى دمشق، وقابل المسؤولين

هناك، وبعد أيام أُفرج عن الفتىٰ، ورجع إلىٰ أهله، وزرته في بيته، وهنأته بالسّلامة، وحكىٰ لي ما لاقاه من صُنوف التعذيب وضروب الأذىٰ وفنون التَّرويع، فقد وجّه له المُحققون تهمتين، الأولىٰ: أنَّه يعمل مع خلية إرهابيّة في الجامعة ويسعىٰ لاغتيال الدّكتور أسعد أحمد علي[1].

والتُّهمة الثّانية: أنَّ الفتىٰ هو مراسل جماعة الإخوان المسلمين في سوريا مع قيادتها في الأردن وأنَّه يحمل أسرارًا خطيرة ومعلومات دقيقة تمسّ أمن الوطن والمواطن يجبُ عليه أن يُفضي بها.

وقال الفتىٰ الشّاب لي بعد خروجه: «لقد صبّوا عليَّ عذابًا لو صُبَّ علىٰ بغلٍ يُعَدّ بكلّ البغال في العدو والملاكمة والجري وألعاب القوىٰ لخارت قواه ولاعترف بكل ما في حوزته. ولو كان في جعبتي شيء لما احتفظت به ولكنني خالي الوِفاض من كل ما ينسبونه إليّ ولا أعلم منه شيئًا».

وخرجَ هذا الشّاب بعد ذلك مع أهله إلىٰ الأردن، ولحق بأهله وعشيرته، وعلمتُ أنَّه أتَمّ الماجستير والدّكتوراه، وإخال أنَّه لنْ يَنسىٰ هذه المأساة المروعة الّتي نزلت بساحته والعذاب الأليم الّذي ذاق فنونه وألوانه، وقد ذاقه مئات الألوف من أبناء شعبنا المظلوم المكلوم المصابر.

---

(١) **أسعد أحمد عليّ**: أستاذ جامعيّ نُصيريّ كان يُدَرِسُ في الجامعات اللّبنانية، وبعد أنْ عركت الفتنة النَّاس في لبنان برحاها جاء إلىٰ دمشق وشَرَعَ يُدَرسُ في جامعاتها، وقد دَرَسَني في الدبلوم الخاص في قسم اللغة العربية، ولم يكن الفتىٰ المسكين يَعْلمُ من هذه التّهمة الملفقة شيئًا، وكان أسعد علي كتب رسالته في الدكتوراه عن الفاتك النُّصيريّ المَكزون السِّنْجاريّ الحسن بن يوسف بن مكزون المتوفىٰ سنة ٦٣٨هـ، وله فهوم شاذّة غريبة في باب تفسير آيات القرآن العظيم، وليس هذا مكان الحديث عنه وعن آرائه السقيمة وفكره العقيم وسلوكه في الجامعة.

واقرؤوا إنْ شئتم ما كُتب في هذه البابة من كُتب سطرتها أقلام من ذاقوا أفانين العذابِ في سجون هؤلاء الظالمين، ومنها: **(تدمر شاهد ومشهود)** و**(خمس دقائق وحسب!)** و**(القوقعة)** و**(سنتان في القاع)** و**(طاحون الشّياطين)**، وغيرها مما كتبه من رَعتْ معتقلات النّظام الباطنيّ شبابهم، ومزقت سياط الجلادين ظهورهم، وأَنضجت نار الطّغاة جلودهم، فمنهم من قضىٰ شهيدًا، ومنهم فَرّج الله عنه، وعند جُهينة الخبر اليقين.

وأما الحادثة الثّانية فبطلها رجلٌ فلسطيني الحاج سليمان محمَّد أمين الحاج داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ـ وهو عم زوجتي ـ كان يعمل مُدرسًا في السّعودية منذ عام ١٩٦٣م، أرسل مما ادخره مالًا، واشترىٰ لنفسه وأهله قطعة أرضٍ، وبنىٰ عليها بيتًا لم يتمه، قدم إلىٰ محافظة درعا عام ١٩٨٠م، وفرح بمقدمه أهله وإخوانه وجيرانه وأصدقاؤه، ذهب إلىٰ صلاة الجمعة في مسجد المحطة (مسجد الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد)[(١)].

وبعد الفراغ من أداء هذه الفريضة العظيمة وكان لا يزال قريبًا من المسجد يُسلمُ عليه محبوه وعارفوه جاءه رجال المخابرات حفدة كوهين ضابط المخابرات الصّهيوني[(٢)] وقالوا له: «نريدك مدة خمس دقائق فقط في أمر يسير جدًا» وحاول أخوه الحاج يعرب محمَّد أمين الحاج داود، (وهو والد زوجتي)

---

(١) صار المسجد اليوم ركامًا وحطامًا بسبب الغارات الوحشيّة الّتي شنها طيران العصابة الباطنيّة المارقة والطّيران الرّوسيّ المجرم، انظر صورته آخر الصّفحات.

(٢) الّذي تسمىٰ باسم: كامل أمين ثابت، أُعدم في ١٨ أيار ١٩٦٥م. وكانت تربطه بقيادات البعث من الباطنيين وغيرهم حبال الصّداقة، ويُقيم لهم الحفلات الماجنة في شقته في شارع أبو رمانة، ويطلع علىٰ كل شاذة وفاذة من أسرار الدّولة، ومن هؤلاء حافظ أسد العلج النّصيري الّذي كان قائدًا للقوات الجوية يومئذٍ.

إقناعهم بتناول طعام الغداء معهم، وأنْ يكون استجوابهم له بعد الطّعام، فهو لمْ يرَ أخاه منذ زمن بعيد، وقد صنع له طعامًا، ودعا إليه الأحباء والأصدقاء، فرفض رجال المخابرات هذا العرض الإنساني وأصروا على أداء واجبهم الوطني والقومي في حفظ أمن الوطن والمواطن، وصعد الزّائر المسكين سيارة آكلي لحوم البشر ذوي الإجرام والطّغيان والصَّلف والأَشَر، ووضع أهل المنزل الطّعام وأكلوا مع من حضر، ومضى شهران كاملان وهم يرقبون عودة الحاج أبي أمين الّذي ذهب في ضيافة أمن الدولة ولم يسمعوا عنه خبرًا من الأخبار، شأنه شأن عشرات الألوف من أبناء شامنا المبارك المنكوب بعصابات الفجور والظّلم والخيانة والعار.

ذهبت والدته إلى الشَّيخ عبد العزيز، وكانت قد قدمت أحد أبنائها الأربعة شهيدًا في لبنان إثر غارة يهودية بالطّائرات سنة ١٩٧٣م على قواعد الفدائيين، وكان ابنها الشّهيد عبد الله محمَّد أمين الحاج داود آمر قطاع السّاحل هناك، ومضرب المثل في الشّجاعة والجراءة والإقدام، ترك زوجة وأولادًا ووفدَ شهيدًا على ربٍ كريم.

تكلمت الأم المكلومة مع الشَّيخ عبد العزيز وكانت ذا جلدٍ وصبرٍ في شأن ولدها السّجين الّذي لم تسمع له ركزًا، وليس في جعبتها عنه أثارة من عِلمٍ، وكعادة الشَّيخ سعى بجاهه لمعرفة حال الرّجل وتَبيّنَ أنَّه يقبعُ في أحد فروع المخابرات وقد مضى على اعتقاله شهران كاملان لم يُحقق معه أحد في أثنائهما ولم يسأله أحد عن شأنه.

أُفرج عن الرّجل ليلًا، فزار أمّه وودعها وودع إخوته، وغادر الحدود قبل أنْ يتنفس الفجر الصّادق ولم يعد بعد ذلك إلى البلد الّذي أُوذيَ فيه،

ولمْ يَدرِ سبب اعتقاله، فلم يكن سياسيًا وليس له صلة بالأحزاب السّياسية، وكل ذنبه أنه كان يصلي في المسجد، وله لحية خفيفة تزينُ وجهه، ومضى لأداء فريضة الجمعة وخرج ولمْ يذق الطّعام الّذي أُعد له، ولم يزر أصدقاءه ورُفقاءه الّذين كان يتشوق لزيارتهم.

زار السّجن شهرين كاملين، وزار سجون هؤلاء الطّغاة ألوفٌ من أبناء شعبنا ومنهم من قضى فيها ما يُربِي على ربع قرن أو يزيد، وذاقوا فيها أفانين العذاب، وقضى كثيرون نحبهم شهداء في غيابات المعتقلات الّتي بناها الثّوريون الباطنيون وعملاؤهم لحماية أمن الصّهاينة في الجولان الّتي بِيْعَتْ بثمن بخس كرسيٍ متهرئٍ وضعَ على جماجمِ الشُّرفاء من أبناء هذا الشّعب الصّبور المجاهد الجسور، ولا تزال الجولان ترزح في أغلال المحتلين ترقب أبناء الإسلام المخلصين الّذين يُقوّضون عروش الطّغيان ويَقهرون كلّ مجرم خَتَّارٍ وخوَّانٍ ويحررونَ الإنسان والأوطان من الأعداء القتلة المجرمين.

إحياءُ المناسبات الإسلاميّة

كان الشَّيخ يُحرِّض على إحياء المناسبات الإسلاميّة ويتخذُ منها مواسم للدعوة إلى الله تعالى، ومحطات مهمة لبيان معالم الإسلام وتجلية جوانب العظمة فيها، وكلّ ما فيها عظيم، في عقائده وعباداته وشرائعه وشعائره وأحكامه ونُظمه وقيمه وتصوراته... فإذا ما دلفت مناسبة إسلامية كريمة مثل ذكرى الإسراء والمعراج، والمولد النّبويّ الشّريف، وغزوة بدر، وفتح مكة، وغيرها، جعلها الشَّيخ مثابة يأوي إليها في الدعوة إلى الله تعالى واستنباط الدّروس والعِبرِ والعِظات منها.

وكان النَّاس يقبلون على هذه المناسبات إقبالَ الظمآن على الماء القَراح، يَحيَونَ في ظِلالها الوارفات، ويستمدون منها الصّبر والعزم والتّقوى والثّبات، فتستنير القلوب وتنشرح الصّدور في ظلال دعوة الإسلام دعوة الهدى والحقّ والعدل والرّحمة والقوّة والنّور.

كان إحياء تلك المناسبات يزخر بالكلمات الهادفة، والمواعظ البليغة، والأناشيد الطّريفة، والإرشادات المُنيفة، والتّوجيهات الشّريفة الّتي تدعو إلى الخير والهدى والرّشاد، تُوقِد الحزم وتوقِظ الهمم والعزم لاستئناف حياة إسلامية راشدة.

الجانب الإنسانيّ العاطفيّ عند الشَّيخ

لقد كرَّم الله تعالىٰ الإنسان وخلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وسخَّر له ما السَّماوات والأرض، وجعله في الأرض خليفة واستعمره فيها، وشرَّفه بأنبل وظيفة وأكرم مهمّة وهي العبودية لله ﷻ، وأكرم الله تعالىٰ الإنسانيَّة بخير الكتب وهو القرآن الكريم الَّذي أنزله علىٰ قلب خاتم النبيِّين وسيِّد المرسلين رسول الله محمَّد بن عبد الله ﷺ.

ولا جرم أنَّ القرآن الكريم وهو كتاب الله تعالىٰ والمصدر الأوَّل من مصادر التَّشريع الإسلاميِّ قد عُنِي بالإنسان عناية كبرىٰ، ويتجلىٰ ذلك في حديثه عن الإنسان أو إلىٰ الإنسان، ولذلك قال العلّامة الدّكتور يوسف القرضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عن القرآن الكريم: «كتاب الله تعالىٰ وهو كتاب الإنسان الأول».

ومن مقاصد القرآن العظمىٰ هداية الإنسان وإصلاحه وإسعاده وتحريره من الطواغيت والسموّ به في أجواء العبوديّة والإنسانيّة الحقَّة ولن يكون الإنسان إنسانًا حقًا إلا إذا عاش في أكناف الوحي ودار معه حيث دار.

ولا ريب أن سيِّد بني الإنسان هو رسول الله ﷺ الذي كان خُلقه القرآن فهو الرَّسول الإنسان الذي تبوأ ذؤابة الكمال الإنساني وختم الله تعالىٰ به النبيّين والمرسلين.

وقد وجّه الإسلام عنايةً بالغةً إلىٰ الجانب الإنسانيّ وأولاه أهمية كبرىٰ في أحكامه وعباداته وهداياته وتشريعاته حتَّىٰ يتقلّب الإنسان في أعطاف

السَّعادة الدُّنيوية والأخرويَّة ويكون مصدر هداية وإسعاد وخيريّة للعالمين.

ولا شكَّ في أنَّ العلماء الرَّبانيّين الّذين يَحْيَون مع القرآن ويقتدون بالرَّسول الإنسان خاتم النَّبيّين وسيّد المرسلين هم الَّذين يفيضون على البشريَّة معاني الخير والسَّعادة والرَّحمة والعدل والحريَّة والكرامة والحياة وما نراه اليوم من خواء روحيّ وجفاف عاطفيّ وتصحُّر شعوريّ وطغيان واستبداد وظلم وعسف وتمييز واستعباد للشعوب ودمار لبني الإنسان يعود إلى الحيدة عن الإسلام والمكر بالرِّسالة الإسلاميَّة الغرّاء وأهلها وحملتها الصَّادقين.

ولقد كان الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عالمًا ربانيًّا رقيق حواشي النَّفس مُرهف الحسِّ متَّقد العاطفة مشبوب المشاعر تتفجَّر نواحيه اعتزازًا بالإسلام العظيم ورجاله العظماء وتفيض نفسه رحمة بالأمَّة الإسلاميَّة المكلومة المظلومة المثخنة بالآلام والجراح والأوجاع والأحزان والمترديّة في أودية الانحسار الحضاريِّ الإنسانيّ والتّأخر والوهن والانحطاط والتَّخلف وتسلّط قوى الاستبداد والاستكبار، ويشرق قلبه أملًا بمستقبل وضيء بسّام.

كان إذا تحدَّث في السِّيرة النَّبويَّة المباركة الشَّريفة المنيفة تجد المحبَّة العارمة الَّتي تملأ شِعاب روحه وأقطار نفسه حبًّا لصاحب الرِّسالة وخاتم النَّبيّين وإمام المرسلين رسول الله محمَّد بن عبد الله ﷺ وتضحيته وصبره وجهاده وعبادته وقيادته وبناء دولته أعظم دولة عرفها الوجود وشهدها الكون وأبصرتها عين الإنسانيَّة وفاض قلبه بحبِّ النَّبي ﷺ وأصحابه الغُرّ الميامين الَّذين ربَّاهم أعظم تربية وأجلّها وأسماها وصنعهم على عين الوحي الّذي يتنزل على قلبه الشَّريف فكانوا خير القرون وأكرمها على الله تعالى وأحبها إليه رهبان ليل فرسان نهار تسيل نفوسهم على شفرات السّيوف في سبيل الله تعالى فحملوا

ألوية الهداية والرَّحمة والعلم والعدل والسَّعادة إلىٰ العالمين ودانت لهم الأمصار والأقطار ولن تسعد الأمَّة الإسلاميَّة وتعود سيرتها الأولىٰ إلا بالعودة إلىٰ رحاب الوحي وأنوار الرسالة.

أذكر أننا بعد صلاة الفجر جماعة في مسجد الكرك وهو قريب من بيت الشيخ وبعد درس الفقه كان أحد الأحبّة قد حمل معه خطبة جمعة مسجلة للشيخ العالم الخطيب الدّاعية الرّاسخ عبد الحميد كشك رحمه الله الذي سُجن في سجون الطّاغية جمال عبد الناصر حسين وذاق ألوان الأذىٰ وكانت خطبه محظورة محجورة واستأذن الشيخَ في الإصغاء إليها والشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله صاحب مدرسة في الخطابة لا يشق له غبار وله قدرة عجيبة علىٰ التأثير وتحريك عواطف الجماهير وفضح الخونة المجرمين أعداء الإسلام والإنسانيَّة وكان فيها حديث عن ماض زاهر غابر وعز شامخ داثر وواقع واهن خائر وطغاة مجرمين باعوا الأمة في أسواق النّخاسة والهوان لكل محتل مجرم غادر فتأثر الشيخ تأثرا بالغًا ودمعت عيناه، والمنابر هي مدارس الحياة في الأمّة وتشكيل العقول المسلمة وبناء النّفوس المؤمنة الأبيّة وصناعة المجتمعات المسلمة الرّبانيّة والقادة المصلحين والمجاهدين الأخيار وقد مكر الطّواغيت والظلمة برسالة المسجد والمنبر وطاردوا الدُّعاة المخلصين والعلماء العاملين الربَّانيين والمفكِّرين الصّادقين وجلبوا من أكل من حلوائهم وحطّ في أهوائهم وحارب العلماء العاملين وأفتىٰ بتكفيرهم وقتلهم وسفك دمائهم وتهجير آبائهم وأمهاتهم وأبنائهم وترويع أطفالهم ونسائهم.

وكانت المناسبات الإسلاميّة بأنواعها منابر للدَّعوة إلىٰ الله ﷻ وبيان خصائص الرّسالة الإسلاميّة ومعالمها من ربانيّة وشمول وتوازن وخلود ومرونة

وعالميّة وإنسانيّة وغير ذلك وكان بعض طلبة الشّيخ يقدّم للحفل وبعضهم يُسهم ببعض الكلمات وتصدح حناجر بعضهم بالأناشيد الإسلاميّة الهادفة وفي الإنشاد توجيه وإرشاد وكان تأثر الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بما يسمع كبيرًا واضحًا جليًا لا تخطئه العين.

ومن هذه الأناشيد:

أفلا يأتي يوم نحيا فيه حياةً إسلامية

إسلاميّة إسلاميّة لا شرقيّة ولا غربيّة

وأنشودة:

شباب الجيل للإسلام عودوا فأنتم روحه وبكم يسود

وأنشودة:

الدّين لنا والحقّ لنا والعدل لنا والكل لنا

أضحى الإسلام لنا دينا وجميع الكون لنا وطنا

وغيرها من الأناشيد الإسلاميّة الرّائعة في مبانيها ومعانيها ومقاصدها ومراميها وكانت أشرطة المنشدين الإسلاميّين ومنهم الشيخ أحمد بربور أبو عبد الله وأبو دجانة وأبو الجود وأبو مازن جليلةً في المعاني والمباني تهزُّ أوتار القلوب وتقضُّ مضاجع الظَّالمين.

وقد ذكر الأخ الشَّيخ المهندس الداعية مطيع البطين مشاهد تنبئ عن جلالة قدر الشَّيخ وحسِّه المرهف وعاطفته الجيَّاشة وتأثُّره بالأحداث الجسيمة الَّتي تطحن الأمَّة الإسلاميَّة برحاها وتأثره العظيم بما يرى ويسمع وهذا شأن

العلماء الرَّبانيين. وسأدع له الكلام ليحدثنا عن بعض هذه المشاهد المؤثرة:

زارت فرقة الإمام النووي للإنشاد الشيخ بعد عودته من الحجّ إلى بيت الله الحرام وأنشد أعضاؤها بين يدي الشيخ فرحًا بقدومه المبارك الأنشودة المعروفة: «مسعد يا من زرت البيت» فلمّا وصلوا إلى البيت الذي يقول: «فاض الدمع وطرق السمع حجك مبرور وذنبك مغفور أجهش الشّيخ بالبكاء وتأثَّر تاثُّرًا بالغًا».

ومن المشاهد المؤثِّرة البليغة أن الإخوة في أحد الأفراح قدموني للكلام بحضرة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: وتكلَّمت على صور من الحبِّ والوفاء، ومن ذلك حبُّ السَّيدة العظيمة أمّ المؤمنين خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا للنبيّ ﷺ وقد كانت للنبي ﷺ وزير صدق في الإسلام كما قال ابن هشام في سيرته. وقد ذكرت ما ينسب للسَّيدة خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت للنَّبي ﷺ:

ولو أنَّ لي في كـلِّ يوم وليلـة بساط سليمان وملك الأكاسرة
لما عدلت عندي جناح بعوضـة إذا لم تكن عيني لوجهك ناظرة

فبكى الشَّيخ بكاء عظيمًا واخضلّت لحيته المباركة بالدّموع.

وثمة مشهد ثالث أودّ ذكره أيضًا حيث كنّا عائدين من بلدة الحارة إلى مدينة درعا فوضعت أنشودة لأحد المنشدين الإسلاميين وفيها باللهجة المحكية العامية:

بـدي أحكي قصـــه يـا خوان الله واحـد مـالـه ثـان
الـقصـــة قصـــة إنســـانـة عـاشـــت في قـديم الزمـان.

وهي تحكي قصة امرأة مسلمة مصابرة استشهد أبناؤها الأربعة في فلسطين وهم يقاتلون عصابات بني صهيون دفاعا عن دينهم وشعبهم وأمّتهم وأرضهم وعرضهم فتأثر الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كثيرًا وبكىٰ وعرف الحزن في محيّاه الكريم وتألّم لمصاب أهلنا في أرض الإسراء والمعراج الَّذين يذودون عن فلسطين والمسجد الأقصىٰ المبارك بدمائهم وفلذات أكبادهم وقد خذلهم القريب والبعيد ومكر بهم حكام العرب وفتكوا بهم إرضاء لأسيادهم وولاة أمورهم من يهود وأجلبت عليهم جحافل الشرِّ والإفساد والإجرام والجحود فما وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا وضربوا أروع الأمثلة في الصَّبر والمصابرة والرباط والجهاد.

رعاية اليتامى والفقراء والمساكين وذوي الحاجات

كان الشَّيخ عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُعنَىٰ عِنايَةً كبيرة بأُولي المَسكنة والحاجة الّذين عَضَّهم الفقر بِنَابِهِ، ومَسْتهم المَسْغبة، وغفل عنهم النَّاس، وتغافلت عنهم دولة البعث الباطنية لاهتمامها بقضايا الوطن المصيريّة! وإنفاقها الأموال والثّروات علىٰ الرّاقصين والرّاقصات والمطربين والمطربات ليكونوا رأس حربتها في تحرير الجولان من بني يهود.

وكان هؤلاء الفقراء يشكون إلىٰ الله تعالىٰ ظُلم العِباد، ويَبثون إليه أحزانهم وشكواهم، ويرقبون يوم القِصاص ممن سلبَ قوتَهم وآذاهم، وهل تُنصر الأمة إلا برعاية ضعفائها وفقرائها ودعواتهم الصّالحة.

وأذكر أنَّه بعد هزيمة ١٩٦٧م وبيع وزير الدفاع حافظ أسد الجولان للصهاينة هَامَ أبناؤها علىٰ وجوههم، وطفقوا يلتحفون السّماء ويَفترشون الغبراء، ويبحثون عن الطّعام والغذاء والدواء والكساء، كان القادة الثّوريون المنتصرون يتقلبون في أعطاف النَّعيم ويُذيقون الشَّعب المسكين العذاب الأليم، فقد تحالفوا عليه مع جيوش الجوع والفقر والظّلم والقهر بعد أن باعوا الأرض والكرامة والعرض والعفاف والطُّهر.

كان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يرعىٰ شؤون أهل الحاجة ويَتَقراهم[1] ويوصل إليهم المعونات والمساعدات سرًا، ويحملها علىٰ كتفيه إذا جن اللّيل، وأرخىٰ

---

(١) يتتبع أمورهم وحاجاتهم.

سُدُوله، وهجعت الأعين، ووجد النَّاس دفء الفراش ولذة الرّاحة. كان الفقراء والمساكين يفرحون بهذه المساعدات ويجدون فيها ما يُنَفس كُرباتهم، ويَقضي بعض حاجاتهم، ولا يَدرون في أحيان كثيرة الأيادي البيض الّتي تمتد إليهم بالإحسان.

خرج الشَّيخ في إحدىٰ اللّيالي المطيرة الباردة متخفيا يحمل الطّحين إلىٰ إحدىٰ الأُسر الفقيرة وقد أَوصد النَّاس عليهم أبوابهم، وعرفه أحد المارة، فطلب الشَّيخ منه أنْ يكتم ما رأىٰ وألا يُحدث بذلك أحدًا.

وقد أنشأ الشَّيخ رحمه الله جمعية البر، وهي جمعيّة خيريّة تُعنَىٰ بشؤون اليتامىٰ وتقوم علىٰ رعايتهم ولا يخفىٰ علىٰ أحدٍ ما في رعاية اليتامىٰ والأرامل من ثواب عظيم وخير عميم وأجر جسيم، وحسبنا في هذا قول النّبي ﷺ: (أنا وكافل اليتيم في الجنّة كهاتين)، وقوله ﷺ: (السّاعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله).

هل مات شيخ المحسنين ... وشيخ آساد العرين

هل مات من جعل الحيا ... ة هنيئة للآخرين

الشَّيخ وعمارة المسَاجِد

بَذَلَ الشَّيخ جهودًا عظيمة حميدة في عمارة بيوت الله ﷻ، لأنها منارات التّوحيد في العالمين ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فما من مسجد من مساجد محافظة درعا إلا وللشيخ فيه جهد مشكور وسعي مبرور. ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التّوبة: ١٨].

كان الشَّيخ يسعىٰ بجاهه للحصول علىٰ موافقات الإنشاء والبناء، ويجمع التّبرعات من أُولي الإحسان والجود والسّخاء، من أجل عمارة المساجد لتقام فيها الشَّعائر، ولتكون معالم ومنائر ومنابر لتربية الأجيال، والوقوف أمام موجات الفساد والضّياع والضّلال، وصَدِّ عَادِية عواصف الإلحاد والتّيه والانحلال، وبناء الرّواحل من الرّجال الّذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعبادته وتسبيحه، ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النّور: ٣٥ ـ ٣٦].

إنَّ المَحاريب هي الّتي تخرَّج فيها الأبطال الصِّيْدُ والرِّجال الصّناديد، الّذين صنعوا تاريخنا الإسلامي الوضّاء التّليد المجيد.

مِنْ جَانب المِحراب يَبدأ سَـــيْرنا للنصــرِ لا مِــنْ ظُلمــةِ المَــاخورِ

وسلوا التّاريخ عن هذه الحقيقة الكبرىٰ الخالدة، وكلّ حوادث الدّنيا عليها شهود، أين تربىٰ الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم ومن سار علىٰ سُننهم في الاعتقاد والعبادة والاجتهاد والإرشاد فملؤوا أركان الوجود رحمة وهداية وعلمًا وعدلًا، هؤلاء المَحاريبُ هم الّذين تربوا في أكناف المَحاريب[1].

جمع العبادة والخشوع لربه ما أحسن المِحرابَ في المِحرابِ

وهؤلاء العظماء قصصهم محفورة في ذاكرة الحياة وقلب الوجود وضمير التّاريخ، لا يَعدو عليها النّسيان مهما حاول طَمْس روائها وبهائها جنود الشّيطان.

سعىٰ الشَّيخ في بناء مسجد في منطقة الجُمرك السّوري بين درعا والرّمثا (علىٰ الحُدود السُّوريّة الأُردنيّة) ومَنْطقة الحُدود تُمَثل وَجْه البَلد وأهله، والمسافرون بهم حاجة كبيرة إلىٰ مسجدٍ يصلون فيه ويَسْجُدُون في رحابه الطّاهرات وأكنافه المباركات الطّيّبات، ليَجِدوا سعادة النّفس وطمأنينة الجَنَان وهُدوء البَال، والسّفر قطعة من العذاب.

حَصل الشَّيخ علىٰ موافقة بناء المسجد واختيرت الأرض المناسبة لعمارته، وبدأ الشَّيخ يسعىٰ سعيا حثيثًا لتحصيل الإسمنت والحديد ومواد البناء، ولا يخفىٰ ما في ذلك من نصب ومشقة وعناء، وهذا الأمر في الأصل منوط بالدولة والجهات المسؤولة ووزارة الأوقاف، وهذه الجهات لا تعنيها هذه الأمور فهي مشغولة ببناء السّجون والمعتقلات والبارات وحانات الخمور والخَنَا والعُهْر والفُجور، وقتل كل مخلص كريم وغيور، وتمجيد الطّغاة والعتاة

---

(١) **المَحاريب** الأولىٰ: جمع مِحْراب اسم فاعل من المُحارب المقاتل، **المَحاريب** الثّانية: جمع مِحراب اسم مكان الصّلاة والقيام.

الّذين سطوا بالبلاد والعباد ونشروا في الأرض الكفر والطّغيان والفساد، كان الشَّيخ يحرص على إنفاق كل قرش يجمع من التّبرعات في مكانه المناسب، وكانت هناك أعمال يمكن أن يقوم بها عمال غير مختصين، كنقل اللَّبن والرَّمل والإسمنت والحديد وغير ذلك إلى موقع العمل، كان الشَّيخ حريصا على الإشراف على بناء المسجد بنفسه، على الرّغم من كثرة الأعمال المنوطة به والأعباء الّتي تُثقل كاهله.

وكنا نذهب معه إلى مكان بناء المسجد، نقوم ببعض الأعمال الّتي لا تحتاج إلى تخصص، كنقل الرّمل والإسمنت والحديد ووضعه بين أيدي البُناة المَهرة والمتخصصين، ونُسهم بذلك في الاقتصاد في إنفاق الأموال وادخارها، من أجل إعطائِها العمال البنائين الّذين هم عماد البِنَاء وقوامه، كنا نجد سعادة تَعْمُر قلوبنا ولذة تَغْمُر نفوسنا ونحن نُسهم في هذا العمل على وجه التّطوع لبناء مسجد يُرفع فيه الأذان ويتلى فيه القرآن وتُقام فيه الصّلاة ويكون عنوانًا وشعارًا لبلاد الشَّام الّتي أراد لها الباطنيون وأذنابهم أنْ تَرتكِس في مستنقعات الجاهلية الآسنة.

وذَهِلنا عن أنفسنا ونحن نرى الشَّيخ يخلع جبته وعمامته ويحمل اللَّبِنَ على عاتقه ويُدْنيه من مكان البناء، فهرعنا إليه ونحن الشّباب لنحمل عنه اللّبنة الّتي كانت على عاتقه، فتبسم وهو يقول: «**لستم بأقوى منّي، ولستُ بأغنى عن الأجر منكم**». فأبى الشَّيخ إلا أنْ يكون قدوة حسنة في مضامير الخير والإحسان حتى يحذو النَّاس حذوه ويترسّموا خطاه، ويمضوا على درب هُداهُ.

ولا جرمَ أنَّ التّربية بالقدوة الحسنة من أعظم معالم التّربية القرآنيّة والنّبويّة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ

أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأذكرُ أنَّه جاء إلىٰ محافظة درعا رجلٌ من قرىٰ محافظة السّويداء ـ وقد نسيت اسمه لطول العهد ـ وصلىٰ معنا العصر في جامع المحطة الكبير، وكان ذلك اليومُ يومَ الخميس في عام ١٩٧٨م، وبعد أداء الصّلاة اقترب منّا الرّجل وسلم علينا وفي عينيه ألم وفي مُحَيَّاه حزن بادٍ، وسألنا عن عالم جليل فقيه لأن الأمر جلل وتابع يقول تُوفي والدي في هذا اليوم وقَدمتُ من محافظة السّويداء، وأريد شيخًا عظيمًا ليصلي علىٰ والدي، ويُؤبِنَه ويَدعُو له، وقريتنا يسكنها المسلمون والدَّروز، فقلنا له نعم شيخنا الأستاذ عبد العزيز أبا زيد، فقال: خُذوني إليه ودُلوني عليه، ولكم من الله عظيم الأجر، ومنّي خالص الدّعاء والشّكر.

كان الشَّيخ يُدرس النّساء عصر كل خميس في جامع الشَّيخ خليل في البلد (درعا البلد)، ذهبنا إلىٰ الجامع فوجدنا الدرس قد انقضىٰ، وخرج الشَّيخ لإصلاح ذات البين وإطفاء الشّرّ الّذي هاج بين أُسرتين مُتنازعتين، فأُرشدنا إليه، فوجدنا الشَّيخ قد وُفِقَ إلىٰ إطفاء الثّائرة وفضّ النّزاع بحكمته في وقت قصير.

وقلنا له: يا شيخنا، هذا الرّجل يريدُ أنْ يكلمك في أمر مهم، فدنا منه الرّجل وسلمَ عليه، وحدثه بالأمر الّذي جاء من أجله، وسأله الشَّيخ عن اسم أبيه، فعرفه ودعا له، وتوجه الشَّيخ من فوره إلىٰ مدينة السّويداء، وكنا في صحبته في سيارة أحد الأصحاب مِنْ مُحبي الشَّيخ من بيت الأصفر علىٰ ما أذكر وكان رجلًا شهمًا كريمًا، وكان الشَّيخ صائما وفي أثناء السّفر انْفَتحت

السّماءُ بماءٍ مُنْهمر غَزِير ، وصلنا إلىٰ القرية قُبيل صلاة العشاء ، وأخذ سكان القرية يتوافدون إلىٰ بيت الميت ، يعزونهم بمصابهم .

وبعد أنْ صلينا المغرب والعشاء جمع تأخير وعظ الشَّيخ الحاضرين موعظة بليغة تَنْخلع لها القلوب ، وتَوْجَل منها النّفوس ، وتَسِيلُ منها المدامع ، ثمّ سألَ الشَّيخ الحاضرينَ: أليس في قريتكم مسجدٌ تصلون فيه الجمعة والجماعة ؟ فقالوا: ليس في قريتنا مسجد . ونصلي في بيوتنا ولا تقام عندنا جمعة ولا جماعة . فحزن الشَّيخ واغتم وظهر ذلك في وجهه ، ثمّ قال: ينبغي أن نبني مسجداً في هذه القرية الطّيبة الكريمِ أهلُهَا . وشكّل لجنة من الحاضرين من وجهاء القرية وكان الشَّيخ رئيسها وتبرّع بمبلغ من المال وعدنا أدراجنا ليلًا إلىٰ درعا .

وفي الصّباح الباكر بعد أنْ أدىٰ الشَّيخ صلاة الفجر سافر إلىٰ قرية المُتوفىٰ وصلّىٰ عليه ، وشارك في تشييعه ودفنه ، وألقىٰ كلمة مؤثرة في الحاضرين وعاد إلىٰ مدينة درعا ليخطب الجمعة في مسجد المَحطة الكبير .

رحم الله تعالىٰ صاحب ذلك القلب الكبير الّذي حمل هموم أهل الإسلام وآلامهم وأحلامهم ، وسعىٰ في قضاء حاجاتهم وتنفيس كرباتهم ، وإدخال السّرور إلىٰ نفوسهم ، وهناك قصص وحكايات تتعلّق ببناء المساجد لو ذكرتها لامتد حبل الكلام فتركتها مَخافة السَّأمِ والمَلَلِ .

إصلاحُ ذَاتِ البَيْن

كان الشَّيخ يسارع في إصلاح ذات البين إذا نزغ الشّيطان بين النَّاس، وأفسد مودتهم وقطع عرىٰ محبّتهم، فتهدأ الثّائرة ويزول وحرُ الصُدور، ويعود المتخاصمون بنعمة الله تعالىٰ إخوانًا متحابين بعد أن كانوا لدًّا متشاحنين، ومما أكرمه الله تعالىٰ به ووفقه الحكمة البالغة في الدّخول إلىٰ القلوب ومسارب النّفوس.

أذكر ذهابه مرة وكنتُ بصحبته لإصلاح ذات البين إثر حادث سيارة تُوفِيَ فيه أحد الأشخاص، فدخل الشَّيخ بيت المتوفىٰ واحتفىٰ أهل البيت بالشَّيخ احتفاءً بليغًا، وجلسنا ما يُربي علىٰ السّاعة، ولم يتكلم الشَّيخ في المسألة، ولم يذكرها، وأفاض في الحديث عن موضوعات أخرىٰ، تمسُ شَغاف الأفئدة، فيها تذكير ووعظ وإرشاد مع الدعابة اللّطيفة، ولما خرجنا من المجلس قال الشَّيخ نظرت في وجوه أهل الفقيد وتفرست فيها، فتبين لي أنَّ الوقت غير مناسب، لأنَّ ألمَ المُصاب لا يزال راعفًا نازفًا، وبعد أيام عاد الشَّيخ إليهم بعد اتصالات مهّدت للكلام في الموضوع، فانطفأت الشّرور، واصْطَلَحَ النَّاس وزالت الشَّحناء.

كان الشَّيخ يقضي السّاعات الطّوال في إصلاح ذات البين، وإزالة الخلافات والعداوات الّتي كانت تَشْجُرُ بين النَّاس، لا يألو في ذلك جهدًا وهو يردّد قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النّساء: ١١٤] وكمْ مِن مُعضلةٍ فكّ الشَّيخ عِقَالها، ومُشكلة عويصة أزال إشكالها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

الشّيخ وفقه الموازنات

فقه الموازنات فقه جليل القدر عظيم المكانة للعلماء فيه تصنيف وتأليف وقد عرَّفه الدكتور عبد الله الكمالي في كتابه: (تأصيل فقه الموازنات) بقوله: «هو المفاضلة بين المصالح والمفاسد المتعارضة والمتزاحمة لتقديم أو تأخير الأَوْلىٰ بالتَّقديم أو التَّأخير»، ص ٤٩. ولعلمائنا الفحول الثقات الأثبات الأجلاء نظرات دقيقة عميقة جليلة في هذا العلم، ففي قصة موسىٰ والخضر عليهما سلام الله تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٧٩ ـ ٨١].

يقول الإمام العزّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام المعروف بالقواعد الكبرىٰ ٢/٥٨: «ولو اطَّلع موسىٰ علىٰ ما في خرق السَّفينة من المصلحة وعلىٰ ما في قتل الغلام من المصلحة وعلىٰ ما في ترك السّفينة من مفسدة غصبها وعلىٰ ما في إبقاء الغلام من كفر أبويه وطغيانهما، لما أنكر عليه ولساعده في ذلك وصوب رأيه، لِمَا في ذلك من القربة إلىٰ الله ﷻ...» وإذا كان علماؤنا الأوائل ـ رحمهم الله تعالىٰ وجزاهم عن الشّريعة الإسلامية الشّريفة المنيفة الغراء خير الجزاء ـ لم يستعملوا مصطلح فقه الموازنات فقد تكلموا علىٰ مضامينه ومحتوياته ومقاصده ومراميه

عند حديثهم عن تعارض المصالح وتزاحمها ومثل ذلك عند تعارض المفاسد أيضًا، ومن ذلك ما ورد في كتاب الفروق للإمام القرافي ٣/٢٢: «إن شأن الشَّرائع دفع أعظم المفسدتين بإيقاع أدناها وتفويت المصلحة الدنيا بدفع المفسدة العليا».

وللإمام العزِّ بن عبد السلام في قواعد الأحكام ١/٥ وللإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ ٢٠/٥٧ كلام نفيس دقيق المسلك يرجع عليه.

والحق أن شيخنا العلامة عبد العزيز أبا زيد رحمه كان يصدر عن هذا العلم العظيم في بعض مواقفه وسأكتفي بذكر ثلاثة مواقف فحسب:

الموقف الأول: اعتقلت سلطات البغي والطّغيان والجحود ضابطًا برتبة ملازم أول كان حديث عهد بعرس نشأ في حجر أُمّه يتيما ولم يكن لها ولدٌ سواه رعته طفلا ويافعا وشابا، انتسب إلىٰ القوات المسلحة؛ ليكون سهمًّا في قوس شعبه وأمته للدّفاع عن الدّين والأرض والعرض والحرِّيَّة والكرامة، وعزب عنه أن المافيا الباطنية الكافرة الغادرة هي التي تحكم الشام وتعمل في رقاب أبنائها الأنجاد الكرام سيف الخيانة الصّمصام لحماية الصّهاينة المحتلين المجرمين اللئام لا ترقب في البلاد والعباد إلًّا ولا ذمّة، وتطارد كلّ حرٍّ أبيٍّ شهم غطريف[1] ومجاهد صدوق شريف.

اعتقل الأمن العسكري هذا الضابط الشّاب وابتلعته غياهب السّجون والمعتقلات، وجاءت أمّه إلىٰ الشّيخ رحمه الله تعالىٰ محزونة شاكية تلتمس عنده العون والنّصرة يسبقها الدّمع الغزير المدرار الذي يفيض من مقلتيها ألمًا

(١) الغطاريف: جمع غطريف بكسر الغين، وهو السيد الكريم السخي.

وهمًا وحزنا للتَّعبير عن مرادها وكم فقدت الأمّهات من فلذات أكبادهن في سجون هؤلاء الطّغاة العتاة أذناب بني صهيون.

رقّ الشّيخ لها وتألم لمصابها الجلل قال الشيخ: فكرت مليًّا وقلّبت وجوه الرَّأي في سبيل مساعدة هذه المرأة المكلومة المفجوعة بولدها وانقدح في خاطري أن أذهب لمقابلة العماد مصطفىٰ طلاس وزير الدفاع وكانت بيني وبينه شعرة سيّدنا معاوية بن أبي سفيان الصحابي الجليل خال المؤمنين الخليفة الأموي الكبير رضي الله عنه وعن أمه وأبيه وعن الصحابة أجمعين لعلّي أوفَّق إلىٰ كلمة شفاعة لهذا الضابط المعتقل تكون بابة للإفراج عنه وكشف كربته وعودته إلىٰ أمه وزوجه يشع في جناني ويضيء جوانحي ووجداني قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وازن الشَّيخ بين مصلحة كبرىٰ وهي الوساطة لتفريج كرب مهموم وإطلاق سراح مظلوم وبين مقابلة مجرم مفسد غشوم والغ في مستنقعات الخيانة والعمالة والإجرام وقّع علىٰ مئات قوائم الإعدام بحق أبناء الإسلام في سجون حافظ أسد بائع الجولان وكلب الصّهاينة وطاغية الشّام وماذا سيقال عن الشّيخ وهو يسلك هذا السبيل الوعر الصّعب المرتقىٰ وألسنة الناس الحداد تسارع إلىٰ الرَّجم بالظُّنون ولا ترحم أهل الصّلاح والتُّقىٰ.

يمَّم الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ موقف السيارات الذاهبة إلىٰ دمشق وامتطىٰ صهوة إحدىٰ السيارات واحتفىٰ به سائقها احتفاء عظيما وأبىٰ أن يأخذ الأجرة ولكن الشيخ أصر علىٰ دفعها وهذا هو دأبه وكان له ما أراد.

ولما وصل الشَّيخ إلىٰ عاصمة الأمويين توجه من فوره إلىٰ وزارة الدفاع

واستأذن الحراس الذي أخبروا وزير الدفاع مصطفىٰ طلاس برغبة الشيخ في مقابلته فأذن له

يقول الشيخ: دخلت علىٰ وزير الدّفاع فحياني وكان يلبس بزته العسكرية والأوسمة والنّياشين تتدلىٰ علىٰ صدره وقلت له: جئت في حاجة أرجو ألا أعود إلّا بها.

فقال له مصطفىٰ طلاس: أنا الآن ذاهب إلىٰ زيارة القطّاع الشمالي في الجبهة والوفد المرافق ينتظرني، فإن شئت أن تكون معنا ونتكلم فيما جئت من أجله، فما كان من الشيخ إلا أن اهتبل الفرصة لبيان القضيّة التي زار الوزير من أجلها. وكان الشيخ يتمثل في كثير من دروسه بقول القائل وتنسب إلىٰ الإمام محمّد بن إدريس الشّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

إِذا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْها فَعُقْبَىٰ كُلِّ خافِقَةٍ سُكُونُ

ولَا تَغْفُلْ عَنِ الإِحْسَانِ فِيهَا فَمَا تَدْرِي السُّكونُ مَتَىٰ يَكونُ

ركب الشيخ مع وزير الدفاع في سيارته، وبجواره في المقعد الخلفي، وكان كلمات الشيخ تنساب بالنصيحة انسياب الماء الزلال، تدعو إلىٰ الرِّفق بالرَّعية، ومراعاة مصالح العباد، والمسؤوليّة عنهم كبيرة يوم لقاء الله تعالىٰ رب البرية، وفيها تذكير باليوم الآخر والوقوف بين يدي الله ﷻ في يوم لا ينفع فيه مال ولابنون إلا من أتىٰ الله تعالىٰ بقلب سليم، وكلمه في شأن الضّابط المعتقل والنَّظر في شأنه، فقال له مصطفىٰ طلاس: إن كان من عصابة الإخوان المسلمين فلا مجال للكلام في شأنه البتة، وإن لم يكن منها فيمكن متابعة ملفّه والنّظر في أمره.

وذكر الشيخ استقبال سكان القطاع الشمالي لوزير الدفاع وكانوا ينتسبون إلىٰ إحدىٰ الفرق الباطنية وكيف ذبحوا عشرات الخراف بين يديه وهم يهتفون بحياة الوزير أبي فراس وقائد المسيرة حافظ أسد والنِّفاق مرض عضال وداء قَتَّال يذلّ أعناق الرِّجال ويهوي بالأمم في أودية الذُّل والتّيه والضّلال.

ووصْف ما رآه الشيخ في هذه الزيارة يطول.

ولمّا وضع الطّعام بين يدي الوزير وحاشيته وسط صيحات التّمجيد والتّبجيل وكلمات التّرحيب بالضّيف الضّليل الثّقيل اكتفىٰ الشيخ بتناول اللبن وشيء من الخبز ولم يذق اللحم الذي تقدمت وفوده وتهادت طلائعه إلىٰ الوزير والوفد المرافق له.

وبعد شهر علىٰ زيارة الشَّيخ أفرج عن الضَّابط المعتقل وقرت به عين أمِّه وزوجه وتبيَّن أن تقريرًا كتبه فيه أحد زملائه بعد أن شجر بينهما خلاف أورىٰ الشيطان زنده، وكتابة التقارير المفتراة بضاعة المفلسين والجبناء والسفهاء وكم أوردت من أبرياء موارد الهلكة والفناء في وطن يحكمه الخونة المضبوعون العملاء.

ذكر الشَّيخ هذه الواقعة أمام مجموعة من خواصِّ طلابه وقابلها بعضهم بالاستغراب والاندهاش والاستعجاب وسأله أحدهم: شيخنا الحبيب المفضال كيف تذهب لمقابلة العماد مصطفىٰ طلاس وهو غارق إلىٰ أذنيه في مستنقعات الخيانة والإفلاس والإبلاس وهل يجوز لقاء هؤلاء النَّتن المجرمين ومقابلتهم والجلوس معهم؟ فأجابه الشَّيخ بمنطق العالم الفقيه الأصولي الداعية الرَّاسخ في فقه الموازنات: وازنت بين ذهابي للقاء الوزير وما قد يؤول إليه ويترتَّب عليه من إعتاق عنق مسلم من أغلال الطُّغيان والغشم والظلم وتفريج هم

وتنفيس كرب وبين مقابلة مجرم مفسد والغ في الدّماء فترجح عندي ما فيه إنقاذ نفس مسلمة، ومن المقاصد الشرعية الكبرىٰ في الشريعة الإسلامية السمحة الغرّاء المحافظة علىٰ الأنفس، وقد قبل الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي رأس ملك الروم لاستنقاذ أسرىٰ المسلمين، والقصة رواها ابن سعد وابن عساكر وأبو نعيم والبيهقي وغيرهم ولم أقبّل رأس وزير الدّفاع.

وسأله أحدهم شيخنا الجليل: لماذا لم تطعم من اللَّحم الذي تهادت (مناسفه) بين يدي الوزير والوفد المرافق له؟ فقال: سمعتهم يقولون عند الذبح: هذه لأجل عيونك ولوجهك سيادة العماد، فلم تذبح لوجه الله تعالىٰ ولم يذكر عليها اسمه، والذّابح من طائفة من الطَّوائف الباطنية الَّتي ذكر العلماء أنَّه لا تؤكل ذبائحها ولا تُنكح نساؤها وقد قلت لهم: إنّي سقيم كما قال أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨ ـ ٨٩].

وتالله إن البلاد والعباد في اعتلال واختلال واحتلال واستغلال واستغفال واستجهال منذ أن حكمها هؤلاء المجرمون الأنذال الذين أزهقوا الأنفس والأرواح وسرقوا الأموال وصفدوا الإنسان والأوطان بالسلاسل والأغلال.

الموقف الثاني: كان الشّيخ يرىٰ أن حزب البعث هو الحربة التي أدمت بلاد الشّام، وأنه مطية ذلول للحكم الباطني المجرم الذي قاد البلاد والعباد إلىٰ التّهلكة وأن الضّباط البعثيين المنتسبين إلىٰ أهل السّنة والجماعة هم المرقاة الذّلول لهؤلاء الباطنيين الكفرة الطغاة معتنقي عقيدة الاتّحاد والتّقمص والحلول ومنكري البعث والنّشور وعقائدهم مبسوطة في كتب الملل والنحل ويكفي أن تقرأ كتاب الحركات الباطنية في العالم الإسلامي للدكتور محمد

أحمد الخطيب لترىٰ ما في عقائدهم من الطّامات الكبرىٰ والانحرافات العظمىٰ عن الإسلام وإجماع علماء المسلمين سلفا وخلفا علىٰ خروجهم عن الاسلام وما جرُّوه علىٰ العالم الإسلامي من كوارث ونكبات ومصائب وويلات وولاء لأعداء الإسلام والمسلمين من المحتلين المجرمين الغزاة علىٰ مرّ العصور وكرِّ الدهور.

وكان الشيخ يرىٰ عدم الصَّلاة علىٰ قادة حزب البعث العقائديين الذين آمنوا بعقائده الكافرة الفاجرة، وأهلكوا الحرث والنسل، ودربوا علىٰ معاقرة الخمور ومعانقة الفجور والصد عن سبيل الله تعالىٰ وإيذاء الدُّعاة والعلماء والمصلحين وعاشقي الحريّة والعدل والكرامة والنّور.

وأذكر حادثة تجلَّىٰ فيها لدىٰ الشّيخ فقه الموازنات:

صلّىٰ الشّيخ الفجر في المسجد وعاد إلىٰ بيته وبينما كان يقرأ أذكار الصباح فوجىء الشّيخ ببضعة رجال يقرعون باب البيت فتح الشيخ الباب وإذا هم من معارفه، فرحب بهم واستقبلهم كعادته بحفاوة بالغة، ودعاهم إلىٰ الاقتهاء (شرب القهوة) فاعتذروا إليه، وأخبروه أن أحد أقاربهم توفّاه الله تعالىٰ.

كان المتوفىٰ أحد رجالات حزب البعث في المحافظة لم يدخل المسجد إلا مع المحافظ وكبار المجرمين في العيدين ومناسبة المولد النّبوي الشَّريف، عرف بولائه الكبير لحافظ أسد الباطني القاتل المجرم المثبور وإخلاصه له وتفانيه في الدّفاع عنه وعن الحزب والثَّورة بله تولهه في معاقرة الدِّنان

قال أحدهم للشيخ: فلان مات صباح اليوم ونريد أن تصلّي عليه وتدعو له.

قال الشيخ: كان الموقف صعبًا ولابد من اتّخاذ القرار.

الرّجل أفضى إلى ما قدم وهؤلاء أهله وتربطني بهم أواصر الصّداقة وكنت أقصدهم من أجل التبرع للمساجد ومساعدة أهل الفقر والحاجة والمسكنة فما بخلوا ولا ضنّوا، وهم من رواد المساجد، فإن اعتذرت إليهم عن عدم الاستجابة إلى رغبتهم وتلبية دعوتهم خسرت الأحياء ومن يلوذ بهم ويأوي إليهم.

وكان القرار بالذَّهاب معهم! لبس الشَّيخ جبّته وعمامته وصحبهم ورأى جموعا كبيرة محتشدة من أقارب المتوفى ورجالات الدّولة وزعماء العشائر حضرت للتَّشييع والصلاة على المتوفى وحضور مراسم الدفن.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: تقدمت الجموع للصلاة على الميت وكبرت ونويت الصلاة على من تصح عليه الصلاة من أموات المسلمين في هذا اليوم وبعد ذلك تم الدفن، وارتجل الشيخ كلمة بليغة تحدّث فيها عن الموت والحياة وعن مهمة الإنسان في الحياة الدنيا وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وعمارة الكون وعذاب القبر واليوم الآخر والجنّة والنّار وما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين في جنات النّعيم وللكافرين والمجرمين من عذاب القبر والعقاب الأليم والنكال والجحيم وحثّ النّاس على العمل الصّالح والتّزود بالتّقوى مستشهداً بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة الشّريفة وختم كلمته بالدّعاء للأحياء بالثبات ولأموات المسلمين بعظيم الأجر والثواب ورفيع الدرجات في روضات الجنات.

رحم الله تعالى شيخنا العلّامة الشّيخ عبد العزيز أبا زيد كان ينظر إلى فقه الموازنات فيما يتخذه من مواقف وقرارات.

شكر له أهل المتوفى حضوره وتعزيته وسروا وبذلك. فكسب الأحياء

في موقف طارئ مفاجئ وقد أفضى الأموات إلى ما قدموا.

الموقف الثالث: من صور فقه الموازنات لدى شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حضوره افتتاح الحسينيّة الشّيعيّة في حيّ المطار في محافظة درعا! وهاكم نبأ افتتاحها وموقف الشّيخ عبد العزيز أبا زيد في ذلك اليوم:

أجلبت إيران الصّفويّة على العالم الإسلاميّ بخيلها ورَجِلِها، واحتلّت دولًا إسلاميّةً لها شأن كبير في تاريخ العالم ومسار الإنسانيّة جمعاء، والأيّام دول، فالأفاعي الرّافضيّة تَفُحُّ في العراق وسوريا واليمن ولبنان، وتنهش بأنيابها السّامّة القاتلة عقيدة الأمّة الإسلاميّة وتغير على ثغور الإسلام وحياضه ومسالحه وتسفك دماء المسلمين وتعتدي على مقدّساتهم وحُرماتهم وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم وهي حربةُ قوى الاستكبار والإجرام العالميّة في نحور أهل الإسلام، ورثت أبا لؤلؤة المجوسيّ عقيدةً وعداوةً وشنآنًا.

وجاءت الثّورة السّوريّة المباركة المنصورة على قدر؛ لتقف في وجه أطماعها الفوهاء الشوهاء، ومشاريعها المظلمة السوداء، ولتكشف عن وجهها القبيح المتهدّل بأحقاد القرون، وقد شرعت إيران ببناء الحسينيّات في العالم الإسلاميّ بعد أن استولى الخمينيّ الرّافضيّ على الحكم في إيران في شهر فبراير عام ١٩٧٩؛ لتكون مراكز ضِرار وإضرار وأضرار؛ ولنشر دينها الباطني في الأمصار والأقطار وتغيير معالم الشّريعة الإسلاميّة السمحة الغرّاء وتضليل الأجيال. والخلاف بين الشّيعة وأهل الإسلام خلاف في الأصول لا الفروع، وفي الكلّيات لا الجزئيّات وهذه هي الحقيقة الكبرى الّتي تتجلّى على مرِّ العصور، واقرؤوا إن شئتم كتاب: (أصول مذهب الشّيعة الإماميّة الاثني عشريّة) للشّيخ الدّكتور ناصر بن عبد الله بن عليّ القفاريّ ففيه تأصيل وتفصيل حيث

بين اعتقادهم في مصادر الإسلام: (القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع والقياس)، وعقائدهم في أصول الدين في الإيمان وأركانه، وعقائدهم في الإمامة وعصمة الأئمّة والتّقيّة والمهديّة والغيبة والرّجعة والظّهور والبداء.. وختم الحديث عن الشّيعة الإماميّة الاثني عشريّة المعاصرين وصلتهم بأسلافهم وأثرهم في العالم الإسلامي والحكم عليهم، وكل ذلك من مصادرهم المعتبرة وأُمّات كتبهم.

وما محاولات التّقريب بين السّنة والشّيعة إلّا سراب خادع وسحاب جهام وخرافة موهومة مزعومة، واقرؤوا إن شئتم كتاب: (مسألة التّقريب بين أهل السنة والشيعة) للدكتور ناصر القفاري.

وقد وضع الأستاذ الدّكتور غسّان حمدون في موقعه على الشّبكة العنكبوتيّة ما يربي على ثلاث مئة كتاب تتحدّث عن عقائدهم ومؤامراتهم وتاريخهم المخزي المجلّل بالكيد والمكر بأهل الإسلام والخيانة والعمالة لكلّ عدو للإسلام والمسلمين.

وقد أسّس الشّبّيح النّصيريّ الباطنيّ جميل الأسد[1] جمعيّة المرتضى في سوريا! وصار زعيمًا لها! وأخذت تنشىء الحسينيّات في طول البلاد وعرضها بأموال إيرانيّة، ومنها الحسينية التي بنيت في حيّ المطار في محافظة

(١) جميل علي سليمان الأسد: شقيق حافظ أسد أخزاهما الله ولد في القرداحة عام ١٩٣٣م، وترتيبه الثاني بعد حافظ أسد المولود عام ١٩٣٠م، عرّاب التّشيّع وزعيم التّشبيح، ويعد ابنه فوّاز إمبراطور تهريب المخدّرات والتّبغ، كان عضوا في مجلس الشعب، وعضوا في المؤتمر القطري الثّاني عشر لحزب البعث، سجل اسمه بجدارة في ديوان المفسدين والمجرمين، أنشأ جمعيّة المرتضى للدّعوة إلى التّشيّع، هلك في فرنسا في الخامس عشر من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٤م، وخلّف وراءه مليارات الدولارات الّتي سرقها من أموال الشّعب السّوريّ.

درعا وأسموها مسجد الرّسول الأعظم وكان هناك حضور شبه رسمي تقود أعنّته أجهزة السّلطة النّصيريّة الكافرة الفاجرة وقد حضر من لبنان المرجع الشيعيّ الشهير (آية الله العظمىٰ) محمد حسين فضل الله[1] لافتتاح هذه الحسينية وغيره من أئمّة الضّلال والإضلال من عمائم الشّيعة، وهذا يدل علىٰ أهميّة الحدث، وكان هناك إصرار عجيب من المسؤولين علىٰ حضور العلّامة الشّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ وهنا تجلّىٰ فقه الموازنات لدىٰ الشّيخ وهو شيخ حوران ومفتي المحافظة ولسان أهل السّنّة والجماعة فيها فإمّا أن يَفِدَ إلىٰ هذا المهرجان الضّخم الكبير ويقول كلمة عيناء تلحب الطريق وتكشف العوار وتحقّ الحقّ وتقوّي أركانه وتدحض الباطل وتقوّض بينانه وإمّا أن يغيب عن هذا الحدث ويخلو الجو لأهل الشر والإفساد وكلماتهم الخبيثة الضالة المضلة التي تستهدف أصول الدين وقواعد الإسلام ومعاقد الفضائل ولن يحققوا بإذن الله تعالىٰ مآربهم الخبيثة ومقاصدهم الماكرة، فدون تحقيقها خرط القتاد وشيب الغراب.

وبناء علىٰ فقه الموازنات حضر الشّيخ وألقىٰ كلمةً طيبةً مبصرةً مثمرةً عن مكانة الصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين وعلوّ منزلتهم وأنّهم خير القرون من لدن آدم عليه الصّلاة والسّلام إلىٰ أن يرث الله تعالىٰ الأرض ومن عليها وأنّهم حملة

---

(١) محمد حسين فضل الله مرجع شيعيّ لبنانيّ بارز، ولد في مدينة النَّجف في العراق عام ١٩٣٥م، في أثناء هجرة أبيه إليها لتلقي العلوم عن المراجع الشيعيّة، ترعرع في النّجف، وأتمَّ دراسته فيها وبلغ رتبة الاجتهاد وأُطلق عليه لقب آية الله العظمىٰ، عاد إلىٰ لبنان عام ١٩٦٦ وأسَّس ما يسمىٰ حوزة المجلس الشرعي الإسلاميّ، كان مرشدًا لحزب الله الشّيعيّ عند تأسيسه عام ١٩٨٢، ومن كبار المؤيّدين للثّورة الإيرانيّة، مدح الرئيس الأمريكي أوباما وقال: إنه رئيس لا يعوزه الصّدق عندما قال أوباما: إن أمريكا ليست في حالة حرب مع الإسلام، له مؤلفات عديدة، توفي في الرابع من شهر يوليو عام ٢٠١٠م.

الوحي جاهدوا في سبيل الله تعالىٰ وضحّوا بأموالهم وأنفسهم وذكر الآيات الكريمة الّتي جلّت مكانتهم اللّائقة بهم ومنها قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وقوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. واستحضر الأحاديث الّتي تبين فضائلهم ومنازلهم ومناقبهم وهي كثيرة جدًا، ومنها حديث: «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي...» وحديث: «لا تسبّوا أصحابي، لا تسبّوا أصحابي، فوالّذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه». وأفاض في ذكر جهاد الصّحابة رضي الله عنهم أجمعين وتضحياتهم وعبادتهم وأخلاقهم وأنَّ الواجب علىٰ كل مسلم أن يحبهم ويجلّهم ويترضّىٰ عنهم ولا يذكرهم إلّا بخير وأن يبغض من أبغضهم وأنّ حبهم دين وإيمان وإحسان وأن بغضهم كفر ونفاق وطغيان كما قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالىٰ.

وكان لهذا الموقف الجليل المشهور المشهود أثر عظيم أمام هؤلاء الّذين يكفّرون الصّحابة رضي الله عنهم ويسبّونهم ويطعنون فيهم وقد كان حضور العلّامة الشّيخ عبد العزيز أبا زيد رحمه الله تعالىٰ دعوة إلىٰ الله عزّ وجلّ ودفاعًا عن الإسلام وذبًّا عن الصَّحابة الكرام الغرّ الميامين رضي الله عنهم كلّهم أجمعين أغاظ الأعداء، وقرّت به أعين أهل الإسلام، فجزاه الله تعالىٰ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وقد روىٰ هذا الموقف الأغرّ الجليل الّذي سجّله الشّيخ عبد العزيز أبا زيد رحمه الله تعالىٰ في صحائف سؤدده وأسفار جهاده الأخ الشّيخ المهندس الدّاعية مطيع البطين عن الأخ الشّيخ المجاهد الثّائر الشّهيد السّعيد جبر فالح

أبا زيد الّذي شهد الحدث ، وحضر الموقف ، وسمع كلمة الشّيخ عبد العزيز أبا زيد المؤثرة البليغة وهو من أقارب شيخنا وكان يلازمه كظله وينهل من معين علمه وأدبه وفضله وكان أمين سر ثانويّة الإمام النّوويّ كريم الخصال ممدوح الفعال مسارعًا في الخيرات حريصًا على الطّاعات استشهد بقذائف السّفّاح الباطنيّ العفلقيّ المجرم الغشوم بشار أسد وهو ذاهب الى أداء صلاة الفجر جماعة في المسجد وبقيت جراحه تثعب دما إلى أن تنفس الصبح وبانت غرة النّهار رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلى وهو شقيق الأخ الحبيب المفضال المجاهد الثّائر الصّابر المحتسب عبد العزيز فالح أبا زيد الذي سجن طويلًا في سجن تدمر الصّحراويّ حفظه الله تعالى ورعاه وأسبغ عليه النّعم والآلاء.

الشَّيخ والشَّبابُ

أحبَّ الشَّيخ الشَّبابَ حُبًّا عظيمًا، وكان يرىٰ فيهم الأمل المشرق الباسم والفجر الصّادق القادم، ويفيض عليهم مما آتاه الله تعالىٰ مِنْ علمٍ وحكمةٍ، ويغمرهم بأشواق روحه ونفحات ضميره وأقباس نفسه، فهم عُدّة الأمّة المسلمة في النّائبات، وسياج الوطن في المُلمّات، وعماد البلاد في اللَّزبات، وكان الشَّيخ يأسِر الشّباب كما يأسر غيرهم بتواضعه الجمّ وأدبه الرَّفيع وعلمه الغزير، وخُلقه الكريم، وفهمه الدّقيق وفقهه العميق، وخطابه العذب الرّقيق.

كان الشّباب يَلْتَفُّون حوله ويحرصون علىٰ الإفادة منه والتَّفقه عليه، كان مَرآهُ يُذكرُ بالسَّلف الصَّالحين في سَمتهم وعِبادتهم، (والشيء بالشّيء يُذكر)، وصلاحهم واستقامتهم ونُبْلهم وزهادتهم وذِكرهم وطَاعتهم وفَضلهم وغَيْرتِهم.

كان شباب الإسلام في بلاد الشَّام وكثير من بلاد العروبة والإسلام يُعانون ضراوة التَّجهيل والتَّضليل، ويذوقون أفانين العذاب والأذىٰ والتّنكيل، وكان أساتذة الثّقافة القوميّة والاشتراكيّة يُغَذون الجيل بالمبادئ الكافرة والآراء الفاجرة، والتَّصورات الدَّاعرة، والأفكار الخائرة البائرة، تدعمهم الحكومة الماكرة الجائرة. وكانوا يزعمون أنَّ الإسلام يُمثل مرحلة البداوة في التّاريخ، وما عاد يصلح لقيادة البشرية في عهد الذَّرة والصّواريخ والصّعود إلىٰ القمر والمريخ. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

ولا أزال أذكرُ بأسًى عظيم ما قاله أستاذ مادّة (التّاريخ) في جامعة دمشق

في كلية الآداب قسم اللّغة العربيّة، عام ١٩٧٣م قُبيل حرب تشرين، وكان يُدرّسنا تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، إذْ قال وهو يتحدث عن غزوة بدر الكبرىٰ يوم الفرقان: «يزعم الخرافيون والغَيْبيون الّذين يعيشون في متاحف التّاريخ كقطع أثرية ويَحْيون في مغارات الماضي السَّحيق وكهوفه المظلمة، خارج أسوار العقل والمنطق والعلم، أنَّ الملائكة نزلت يوم بدر وقاتلت المشركين، وضربت أعناقهم، وثبّتت أقدام المؤمنين».

ولما تلونا عليه قول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

قال هذا الأستاذ الاشتراكي التّقدمي المناضل الضِّليل: هذا شيء تؤمنون به أنتم، وأما نحن فلا نومن إلا بما تراه أعيننا وتدركه حواسنا، ولو آمنا بما تؤمنون به من نُصرة الملائكة وتأييدهم لتواكلنا وتقاعسنا عن تحرير الجولان من الصّهاينة المعتدين.

وكانت بعد ذلك حرب تشرين عام ١٩٧٣م، وخسرنا فوق الجولان من المدن والقرىٰ ما يُربي علىٰ الأربعين بسبب هذه الثّقافة اللّعينة الكذوب الّتي كان ينفثها في صدور الأجيال هؤلاء الأساتذة الأفّاكون الدَّجاجلة، الّذين كانوا يطبلون لبائع الجولان الّذي كان سيفًا مصلتًا علىٰ رقاب العباد تمسك به يدُ قوىٰ الإجرام والاستكبار العالمية.

وقدْ مرَّ علىٰ احتلال الجولان المَبيع ذي الخطّ الدّفاعي العظيم المنيع، ما يُربي علىٰ خمسين عامًا، فماذا صنع لها هؤلاء الّذين تربّوا في مدارس إبليس وكلياته وجامعاته؟ وأضلوا النَّاس عن سبيل الله ربّ العالمين وتشريعاته

وهداياته، وكان قائلهم يقول كفرًا صراحًا بواحًا (وناقل الكفر ليس بكافر)، كان يقول:

آمنت بالبعث ربًا لا شـــريك له وبـالعروبـة دينًـا مـا لـه ثـاني

وقائل هذا البيت هو شفيق بن عبد الجبّار بن قدّوري الكمالي وهو شاعر وسياسيّ، المولود في مدينة البوكمال السّورية عام ١٩٢٩م، والمُتوفىٰ في مدينة بغداد عام ١٩٨٤م، وهو مؤلف النّشيد الوطني العراقي المعروف الّذي مطلعه:

وطـنٌ مَـدَّ عـلـىٰ الأُفـق جـنـاحًـا وارتدىٰ مجد الحضـارات وشـاحًا

ويمكن قراءة سيرته وقصة موته بعد ذلك.

زعم الأستاذ الدّكتور سُهيل زكار وكان يُدَرِّس مادة التّاريخ في جامعة دمشق أنَّ الرّسول ﷺ لم يكنْ أُميًا وأنه كان يقرأ ويكتب ويحسب وهو يقتفي في ذلك آثار المستشرقين، وذلك في إحدىٰ محاضراته.

وكان الدكتور سهيل زكار وهو من المؤرّخين المعروفين من تلاميذ المؤرخ والمستشرق البريطاني الصّهيوني (برنارد لويس)، وكان يَعده صاحب الفضل عليه في تكوينه الأكاديمي ويصفه بالنّزاهة والإنصاف، وقد كان برنارد يعلن بأنه صهيوني شانئ للعرب والإسلام.

وقديمًا قالوا: ما فِيكَ يظهر علىٰ فِيك، وما يُخفيه جنانك لا بدَّ أنْ يُظهره لسانك.

وهاجمَ الأستاذُ الدّكتور طيب تيزيني ـ وكان يُدرسنا مادة الثّقافة القوميّة والاشتراكيّة ـ الإسلامَ في إحدىٰ محاضراته وذَكَرَ أنَّ الإسلام مرحلة من

مراحل التّاريخ مرَّتْ بها الأمة وأنَّه يصلح لحياة البداوة فحسب، وأثنىٰ علىٰ الماركسية ومَجَّدَها وسَجَدَ في محاريبها، ومدح مفكريها، وأنها ذروة الكمال البشري وتحقّق للإنسانية كل ما تصبو إليه من سعادة.

وصبَّ أساتذة آخرون جام غضبهم علىٰ اللّحىٰ والحِجاب والجِلباب، وأنَّ هذه المظاهر من أسباب تخلّف الأمّة وعوامل تأخرها وتقهقرها، وكان بعضهم إذا رأىٰ فتاة محجبة في قاعة الدّرس تَمَعَّرَ وجهه، ولبس جلد ذئب غادر ماكر، ووجه إليها نظرات حاقدة أمضىٰ من خنجر أبي لؤلؤة المجوسي.

وحمل آخرون علىٰ الإمام الشَّهيد الشّيخ حسن البنا والإخوان المسلمين ورَمَوهم بالعمالة لليهود والبريطانيّين والأمريكان، وأنّهم سرّ تخلّف الأمّة عن ركب الحضارة والرُّقي والعُمران، وتَجَاهلوا جهادهم في فلسطين، وذِيَادَهُم عَنْ حِياضِ الحقّ المبين، ودِفَاعهم عَنْ أوطان المُسلمين (رَمتني بدائها وانْسلّت).

وزعم آخرون أنَّ الّذين يدعون إلىٰ إعادة مجد الإسلام ودولته الحميدة وخلافته الرَّشيدة وحضارته المجيدة هم مغفلون أغبياء وعملاء سفهاء، لأن الإسلام لا يصلح للحياة، وأنهم لا يزالون يبكون علىٰ الأطلال الدَّوارس كما بكىٰ الشّعراء.

وقد كانت حملات التَّغريب والتَّخريب معولًا هدّامًا في بلاد الشَّام وسائر بلاد الإسلام، وقف في وجهها المصلحون والمفكرون والعلماء الأعلام الموقعون عن الله رب الأنام، وبيّنوا ما فيها من أغَاليط وضَلالات وجَهَالات وعِلل وأَسْقام وطامات عِظام، ومنهم فضيلة الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد. لقد دحروا ضلالاتٍ وأوهامًا دَجَا لَيْلُها، واستطار وَيْلُها، وجَالتْ في ميادين الباطل خَيْلُها.

بيّن العلماء أنَّ الإسلام هو دين الله تعالىٰ الّذي لا يقبل من البشر سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. تُبنىٰ الحضارات والمدنيّات والعلوم والمعارف في أكنافه وذراه، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] به دخلنا التّاريخ قادة سادة هُداة، بعد أنْ كُنا خَولًا وعبيدًا علىٰ أعتابه، وهو طريق شفاء البشريّة من عللها وأسقامها وإنقاذها من دياجير حَيْرتها وأوهامها، وخلاصها من معضلاتها وآلامها، ودُعاته المخلصون هم الأُساةُ[1] الّذين يَشفىٰ بتوجيههم كلّ عَليل ويَسمو بِهم كلّ كَليل، ويعلو إلىٰ العلياء بهم كلّ ذليل، ويهتدي بإرشادهم من أضاع السّبيل.

ولقد كان لدروس الشَّيخ ومحاضراته شأن أيّ شأن في تحبيب الإيمان إلىٰ النّفوس وتزيينه في القلوب وبيان عظمة الإسلام وكماله وشموله وجماله وخلوده وجلاله وصلاح الزّمان والمكان بأحكامه وتشريعاته ونُظمه وهداياته. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

كان الشَّيخ يرنو إلىٰ المستقبل ويلمح الشّباب وهم يقودون مواكب البناء والتَّعمير ويسطرون ملامح النّصر والتّحرير خلف القيادة المعصومة والقدوة الكاملة للبشريّة سيّدنا محمَّد ﷺ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وكان يرسل الشّباب إلىٰ القرىٰ النّائية والأرياف البعيدة لإلقاء خطب الجمعة في مساجدها الّتي أقفرت من الخطباء وإحياء المناسبات الإسلاميّة الغرّاء، فكان النَّاس يكرمون وفادتهم، وتربو في صدورهم مودتهم، ويَرَون فيهم نَفَسًا جديدًا يحيي القلوب

---

(١) الأُسَاة: الأطباء الحُذاق الماهرون.

بهدي الإسلام، ويقودها إلىٰ سُبل السَّلام، ويَنْأىٰ بالحياة والعلاقات في المجتمع عن الشَّحناء والبغضاء والأوزار والآثام.

كان أهل القرىٰ يَفِدون علىٰ الشَّيخ لزيارته واستشارته في شؤون حياتهم واستفتائه في قضاياهم ومشكلاتهم، وحلّ خصوماتهم، ويَذْكرون هؤلاء الشّبابَ بالخير ويُثْنون عليهم، وتلهج ألسنتهم بالدّعاء لهم، فيفرح الشَّيخ فرحًا عظيمًا ويتهلل وجهه بالسّرور والبشرىٰ، ويقول للشّباب: أنتم مصدر سروري وأُنْسِي وقد أعدتم الأمل إلىٰ نفسي.

وكان المسؤولون الموتورون في النّظام النّصيريّ الباطنيّ يَتَميَّزون غيظًا وحقدًا وضغينة، وتأكل العداوة للإسلام وأهله قلوبهم وأكبادهم وتعمي أبصارهم وبصائرهم، فتّربصوا بالإسلام وشباب الدّعوة ورجالها الدّوائر، ومكروا بهم ولَفَّقوا لهم التُّهم وخرقوا لهم أكاذيب وضلالات وجهالات وافتراءات، ليشيطوا علىٰ حراب شنآنهم وأضغانهم.

فامتدت يد الطّغيان الآثمة الوالغة في الدِّماء والعداوة والبغضاء إلىٰ هذه الهامات الشّامخة والعقود النَّضرة، الّتي كانت تزين صدر البلاد وتُنير للناس سُبل الهدىٰ والرَّشاد، فَسَطَتْ بهم وعَدَتْ عليهم، وامتدت بالبَطش والإيذاء إليهم، فتفرقوا أيادي سبأ، فمنهم من زُجَّ بهم في غيابات السّجون الرَّهيبة والمعتقلات الرَّعِيبة، يسامون فيها سوء العذاب، ومنهم من قضىٰ نحبه وهو يَذود عن دينه ونفسه وعرضه، ومنهم من سالت نفوسهم الزَّكية وأرواحهم التَّقية علىٰ أعواد المشانق، لِيَرحل إلىٰ جناتٍ عرضها السّماوات والأرض في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومنهم مَنْ شَطَّتْ به الدَّار ورَمَتْهُ النَّوىٰ بِسِهَامها، ففارق الأهل والوطن وترك الأحبة والعطن، ففغرت الذّئاب العادية أفواهها في الشَّام، وضاقت الأرض علىٰ أبنائها المخلصين الكرام. وكلّ ما يحمله هؤلاء الرّجال الصّادقون في صدورهم هو الحبُّ لدينهم والولاء لعقيدتهم والإخلاص لأوطانهم، والوفاء لشعوبهم وأمتهم، والاستقامة علىٰ الشّريعة الرَّبانية الغراء، واجتناب الفجور والخنا والفحشاء، فحاق بهم العذاب والبطش والإيذاء والسّجن والتَّشريد والإقصاء ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨ ـ ٩].

ومن صور رعاية الشَّيخ للشَّباب وحبِّه لهم وتعليقه عليهم عظيمَ الآمال وجلائل الأعمال ما خصَّ به فرقة الإمام النَّوويّ للإنشاد من حضور ومحبَّة ودعم ومساندة وأترك حبل القول للأخ الكريم الشيخ المهندس الداعية مطيع البطين حيث قال: "أُنشئت هذه الفرقة المباركة في تسعينيّات القرن الماضي وكان أعضاؤها ومنشدوها من خيرة طلّاب العلم والفضل والنّبل والجهاد والبذل والعطاء في المحافظة، وكانت لها آثار عظيمة مجيدة محمودة مشهودة في تغيير خريطة الأعراف والعادات والتقاليد في المجتمع ولا سيّما في الأعراس، حيث برز النشيد الإسلاميُّ الهادف البَنَّاء المتَّزن الَّذي تمَّ اختيار كلماته بدقَّة بالغة وعناية كبيرة، ففي أعطافها دعوة إلىٰ الفضائل ومحاربة للرذائل، وبيان لعظمة الرسالة الإسلاميّة وخصائصها الكبرىٰ من ربانيّة وشمول وتوازن وخلود ومرونة وعالمية وإنسانية ودعوة إلىٰ الجهاد وإحياء للعلاقات الاجتماعيّة الرَّشيدة وتنفير من الظّلم والغشم والطّغيان والفساد بكلِّ صوره وأشكاله.

وكان الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يحرص أشدّ الحرص على حضور الحفلات الَّتي تقيمها هذه الفرقة دعمًا لها وتنويهًا بجميل صنيعها وتشجيعًا لأعضائها، وربَّما سافر إلى أماكن بعيدة على كبر سِنِّه وكثرة أعماله وأعبائه! وكان يشجّع هذا النَّمط من الإنشاد وفيه جليل توجيه وعظيم إرشاد، وكان حضوره يضفي على اللقاءات والحفلات والمناسبات مهابةً وجلالًا وروعةً وجمالًا.

وجُلُّ أعضاء هذه الفرقة الإنشاديّة الإرشاديّة الموفقة أكرمهم الله تعالى بالشَّهادة في سبيله في ساحات الجهاد وميادين الفداء، ومنهم: الشَّيخ تميم الخليلي الذي استشهد في العراق في قتال الاحتلال الأمريكيّ الإيرانيّ، وجمال الأكراد أبو خالد الذي قضى شهيدًا في الثَّورة السّوريّة، والشّيخ أنيس جاموس الذي استشهد في الثّورة السّوريّة أيضًا، والأخ: نزار الحراكيّ الّذي توفّي في الكورونا أسأل الله تعالى أن يكتبه في الشهداء السعداء، وهكذا أكثر رجالها صَدَّقَتْ أعمالُهم أقوالَهم وبذلوا في سبيل الله أرواحهم وأموالهم.

وكان أداء هذه الفرقة بوّابةً من بوّابات الدَّعوة إلى الله والجهاد في سبيله وتعريف النَّاس بالإسلام العظيم عقيدةً وشريعةً دينًا ودولةً وطنًا وجنسيةً جيشًا وفكرةً، ودعوةً وقضاءً وعلمًا سياسةً وحضارةً رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنهم الفردوس الأعلى وجمعنا بهم في علّيّين.

الشَّيخ والحركة الإسلاميّة

في عام ١٩٤٥م تأسست جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، وكان الشَّيخ العلّامة الكبير مصطفىٰ السّباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أول مراقب عامٍّ لها، وأُنْشِئَت الفُروع والمَراكز والشُّعب في المحافظات السّورية، وغدت محطّ القلوب، ومهوىٰ الأفئدة، ومعقد الأمل والرّجاء لدىٰ الخاصّة والعامّة علىٰ السَّواء، وتنافس في الانتساب إليها واللّحاق بركبها الدّعاة والمصلحون والمفكرون والعلماء الّذين يتشوفون إلىٰ نصرة الحقّ والتّمكين للشّريعة الإسلامية السّمحة الغراء.

وكان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ممن سارع في الانتساب إليها والانتظام في عِقْدِها المُبارك المَيْمُون، وكانت الجماعة تسعىٰ جاهدةً بواجبِ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والدّفاع عن قضايا المسلمين الكبرىٰ، والعمل علىٰ إعادة الخلافة الإسلاميّة، واستعادة أوطان المسلمين المَسلوبة، وحقوقهم المغصوبة وثرواتهم المنهوبة، واستنهاض الهمم والعزائم لمحو عار الهزائم لتستعيد الأمة مجدها التّليد الداثر وعِزَها العريق الغابر.

كان الشَّيخ مسؤول الجماعة في محافظة درعا، وكانت له جهود مباركة محمودة ومساعٍ مبرورة مشهودة في الدعوة إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ ومصارعة الباطل، والذَّب عن عقائد الإسلام وشعائره ومشاعره، وتَبصير الأمّة بعظمة هذه الشّريعة الإسلاميّة وكمالها وخلودها وجمالها وجلالها.

كان الشَّيخ العلّامة المجاهد مصطفىٰ السّباعي إذا زار محافظة درعا ينزل ضيفًا علىٰ الشَّيخ وإخوانه، فيجد لديهم الإخلاص والإكرام والحفاوة والعون، وكم كانت للسباعي من صولات وجولات في المدن والمحافظات والأرياف والقرىٰ من أجل تعريف النَّاس بحقيقة الإسلام ووجوب نصرته والدعوة إليه والتَّمكين له في شعاب النّفوس والعقول والقلوب.

كان السّباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يَعْرِفُ قدر الشَّيخ عبد العزيز ومكانته العلميّة ومنزلته الدّعويّة، ويثق به تمام الثّقة في قيادة مواكب الدّعوة في حوران.

ولقد سمعت الشَّيخ عبد العزيز مرةً يقول: «كنت أود الانتساب إلىٰ كلية الشّريعة في جامعة دمشق، فذكرت ذلك للأستاذ السّباعي» ـ وهو مؤسّسها وعميدها ـ **فقال السّباعي: «يا شيخ عبد العزيز أنت أستاذنا وشيخنا، تأتي إلىٰ كلية الشّريعة أستاذا لا طالبًا، ونحن بحاجة إلىٰ علمك وفقهك»**. وصدق الأستاذ الدّكتور السّباعي فيما قال، فقد كان خبيرًا بمعادن الرّجال بصيرًا بقدراتهم وطاقاتهم ومآثرهم، فقد كان الشَّيخ من أعلام الدّعوة والعلم والفقه والتّربية والإصلاح والإرشاد.

كان الشَّيخ عبد العزيز فقيهًا شافعيًا كبيرًا، يستحضر مسائل المذهب وكأنه يقرؤها في أُمّات[1] موارد كتب الشَّافعية وكأنه يراها رأي العين، وكان طلاب كلية الشّريعة يُهْرعون إليه ويُقبلون عليه لفهم ما اعتاص عليهم من المسائل، وما أشكل عليهم من القضايا، فيجدون عنده ضالّتهم المنشودة، فيُجليها لهم بفصاحته المعهودة وعباراته السّهلة الواضحة، وأسلوبه العذب المُحبب البارع الّذي يُقربُ البَعِيد القَصِيَ ويُذلل الصَّعبَ العَصِيَّ.

---

(١) أُمات: جمع أم، وأمهات لا تستعمل لغير الوالدات.

وعندما كنتُ طالبًا في جامعة دمشق كان **الدكتور عدنان زرزور** يُدرسنا في قسم اللّغة العربية مادة الدراسات الإسلامية، وهو أستاذ نبيل جليل وداعية مؤثر من أساتذة الجيل، وجرىٰ بيني وبينه حوار، فقلت له: «أنا من طلاب الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد» فقال: «نِعمَ الشَّيخ هو أستاذنا وشيخنا».

وعندما شقّ بعض النَّاس عصا الطّاعة علىٰ الشَّيخ مصطفىٰ السّباعي وخرجوا علىٰ الجماعة عام ١٩٥٣م، وقاد حركة التَّمرد يومئذ **نجيب جُوَيْفل**(١) في قصة معروفة، وتبعه نفرٌ من أبنائها وقف الشَّيخ عبد العزيز كالطّود الأشمّ فلمْ يجد المنشقون في حوران موطئ قدم.

ولما رفرفت رايات الوحدة في سماء مصر والشَّام عام ١٩٥٨م، وفَرِحَ بها أهل الإسلام ولكن لم يطلْ عمرها، وسُرعان ما انفرط عقدها، لأنها لم تَقُمْ علىٰ أُسس سليمة ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ [التّوبة: ١٠٨].

كان الشَّيخ من المُرحبين بالوحدة لأنها من فرائض الإسلام الكبرىٰ ومقاصده العظمىٰ وصفقت للوحدة شعوب العالم الإسلامي.

وكان عبد النّاصر وأزلامه يسقون هذه الوحدة السُّمَ الزُّعاف، ويُشهرون عليها سيف البَغي والظّلم والطّغيان والإجحاف، ويسرقون ثروات الشَّام ومصر، ويذلّون الأحرار والأشراف، ويُقربون السَّرَقَةَ والقَتَلَةَ والأشرار، فانهدم ذلك الأمل وانهار، وكان الشَّيخ يَرقب ذلك كلّه ويَقرأ سُنن الله تعالىٰ في الظّالمين.

---

(١) نجيب جويفل: من مصر، انتسب للإخوان في مصر، فاستهواه عبد النّاصر وأرسله إلىٰ سوريا لشق صفوف الجماعة فيها، ثمّ استبان أمره بعد ذلك.، ومن أراد تفصيل ذلك فإنه واجده في كتاب الأستاذ عدنان سعد الدّين رحمه الله الموسوم: جماعة الإخوان المسلمين في سوريّة، وهو كتاب نفيس في خمسة مجلدات.

ثمّ قامت حكومة الانفصال وانقض عليها البعثيون في الثّامن من آذار، وقطعوا أوصالها بسيف الإجرام البتّار باسم نصرة الوحدة، وكانوا أول الموقعين على وثيقة الانفصال. وتَسَلّمَ البعثيون زِمام الأمور وهَدَمُوا المَحَاريب وبنوا المَوَاخير، ثمّ كان انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦م، وتَسَلَّمَ السّلطة النّصيريون من وراء، ودخلت الشَّام في نفق الطّائفيّة الباطنيّة. ثم انقلاب ١٩٧٠م الّذي استحوذ فيه آل الأسد على الحكم والسّلطة والجيش والأمن وألغوا الحياة السّياسيّة في سوريا، ودمّروا البلاد وقتلوا كلّ من آمن بالله تعالى الواحد الأحد، وأَدْنَوا كلّ من كَفَرَ وفَجَرَ وجَحَدَ، فاستفحل الشَّرُّ واستطار، وتجرّع العباد العلقم والصَّاب[1].

لم يَنقطع الشَّيخ في هذه العهود عن تدريس العلم الشّرعيّ، وبقي مرابطًا على ثُغوره، وملأَ أكناف حوران علمًا وفقهًا وخيرًا، وما زادته الصِّعاب وحراب الظّالمين إلا ثباتًا ورسوخًا وعزّةً وشموخًا.

إنَّ فـي أضْـــلاعِـنـا أفْـئـدةً تعشـــقُ العزَّ وتأبى أنْ تُضـــاما

(١) الصّاب: هو الحنظل، نبات شديد المرارة.

الشَّيخ والجِهاد

قال أحد العلماء: (إنَّ الحَرف يَلدُ السَّيف ، وإنَّ اللّسان يلدُ السِّنان ، وإنَّ الكتاب يلدُ الكتائب) ، وهُو قول صحيحٌ يُزْجِيه نَظَرٌ سَلِيمٌ ، وفِكْرٌ ثَاقِبٌ ، أَثْبَتت صِحتهُ أَسْفار التّاريخ والوقائع والأحداث والتّجارب .

لقد جاهد الشَّيخ بلسانه وبيانه ، وكان يَتَشوق إلىٰ خوض الغمرات بسنانه وتحرير أرض المسلمين الّتي تَحَيَّفَها الأعداء المُحتلون وانتقصوها من أطرافها ، وفي مقدمتها أرض فلسطين والمسجد الأقصىٰ المبارك وهضبة الجولان فِلْذَةُ كَبِد سوريا وقرة عينها .

أسهم الشَّيخ في حملات التّدرب علىٰ السّلاح وفنون القتال في الجيش الشّعبي الّذي كان رديف القوات المسلحة النّظامية في الخمسينيّات والسّتينيّات ، وكان ينفثُ في رُوعِ المُدرّبين والمُتدربين الحَميّة والجراءة والإباء ، ويَحُثُهم علىٰ أنْ يكونوا الجنود الأباة البُسلاء ، ويُبين لهم ما أعده الله تعالىٰ للمجاهدين والشَّهداء منْ أجرٍ عظيمٍ ونعيمٍ مقيم .

ولقد رأيت له بعض الصّور الّتي كان يحتفظ بها وهو يتدرّب علىٰ السّلاح بالثّياب العسكريّة الّتي كان يرتديها أفراد الجيش الشّعبيّ .

كان الشَّيخ يتقدم مواكب المتدربين ويرجو أنْ يكون في طلائع الفتح المبين ويتوق إلىٰ جهاد اليهود المعتدين ، ولكن هيهات هيهات . . . لقد كانت هذه المشاريع القتالية والمناورات العسكرية الّتي دعت إليها القيادة التقدمية

البعثية النّصيرية بنت الصّهيونيّة وربيبة السّياسة الأمريكيّة؛ لذرِّ الرّماد في العيون، والضّحك على اللّحى والشّوارب والذقون.

ولم يؤمن هؤلاء المجرمون يومًا بالجهاد، ولم يَدُر في خلدهم تحرير البلاد، وهم الّذين أسلموها للصهاينة المجرمين الأوغاد.

إنهم تلامذة الجاسوس اليهودي كوهين، الّذي مات وترك وراءه جيشًا لجبًا عرمرمًا من الكواهين والكوهينات، الّذين تقلدوا المناصب والزّعامات وباعوا الأمّة ولا يزالون في أسواق الخيانات ودهاليز المؤامرات بأبخس الأثمان وأردأ الصّفقات.

لا يُلام الـذئـب في عـدوانـه إنْ يـكُ الرّاعي عَـدُوَّ الغـنـم

الشَّيخ وسجون الطّواغيت

اقْتِيد الشَّيخ قُبيل هزيمة حزيران عام ١٩٦٧م مع صفوة علماء سوريا إلى غيابات السّجون، وذاقوا فيها أفانين العذاب، فكانت أُسودُ العَرِين في العذاب المُهين، وأوباش القرود عملاء يهود تتردّدُ في طول البلاد وعرضها.

قالت: حُبِستَ، فقلتُ: ليسَ بضَائري حَبْسِي وأيُّ مُهنّدٍ لا يُغمدُ

أوَما رأيتِ اللّيثَ يألف غِيْلَهُ كِبرًا وأوباشُ السِّباع تَرَدَدُ

في ٢٥ حزيران سنة ١٩٦٧م، كتب الضّابط إبراهيم خلاص في مجلة جيش الشّعب في العدد (٧٩٤) مقالًا أسودَ الوجه كافر الجنان جاحد الوجدان، ومما ذكر فيه أن الطّريق الوحيد لصنع عز العرب المجيد، وبناء المجتمع العربي الرّشيد، هو خلق الإنسان الاشتراكي الجديد الّذي يؤمن أنَّ الله والأديان والإقطاع والاستعمار والمتخمين وكلّ القيم الّتي سادت المجتمع السّابق ليست إلا دمى محنّطة في متاحف التّاريخ.

وهبَّ علماء الشَّام الأماجد العظام للذياد عن حياض التّوحيد، وهاجت البلاد وماجت، ومن هؤلاء العلماء الرّبانيين الشَّيخ حسن حبنكة الّذي قال في خطبة الجمعة: «يكفي يا قوم إلحادًا وضلالًا واستهتارا بالشّعور، لا والله لا يُجدي السّلاح شيئًا إذا أراد الله أمرًا».

لقد زَجَّ القتلة المجرمون بهؤلاء العلماء الأبرار العاملين في سجن المزّة لأنهم فرسان السّيف والقلم، يريدون لأمتهم العزة والشّموخ والإباء والشَّمم.

وتَعِسَتْ أنظمة ودول وحكومات تقتل العلماء والمصلحين والدّعاة وتُعظم المجرمين والمفسدين واللّصوص والطّغاة، وتَعِستْ أنظمة رَضيت لنفسها أنْ تكون أحذية بأقدام المحتلين والغزاة.

لا يأمن الدَّهر ذو بغي ولو ملكًا جنوده ضاق عنها السّهل والجبل

وأعلن حافظ الأسد وزير الدّفاع آنذاك والّذي أصبح رئيسًا للجمهورية العربية السّورية بعد ذلك مكافأة له على خيانته إذْ أعلن عن تسليم الجولان وزعم سقوطها قبل أن تسقط باثنتين وسبعين ساعة[1].

ومَنْ أَخَذَ البِلاد بِغير حربٍ يَهُون عليه تَسليم البِلاد

وفرَّ القادة الاشتراكيّون البعثيّون من الميدان لا يلوون على شيء، وهذا ديدنهم، وهربَ قائد الجبهة الرّفيق المناضل أحمد المير على حمار، وتبعه القادة السّفلة الأنذال الفجار، وجروا على الأمة الهزيمة والوبال والعار، وجرَّعوها كؤوس الذُّل والألم، وجعلوها أضْحوكة بين الأمم.

واقرؤوا كتاب **(سُقوط الجولان) للمقدم خليل مصطفى ابْرَيّز**، وهو ضابط استخبارات الجولان، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه فسيح الجنان، ففيه الخبر اليقين، ولا ينبِئُك مثل خبير.

حقًا لقد برع هؤلاء الحكام الخونة الرّعاع في إذلال الشّعوب والفِرار من ميادين الحروب وقتل أولياء الله علام الغيوب، والهُوِي بالأمة إلى أودية سحيقة من الكفر والرّدة والأوزار والذّنوب، وطبَّل لهم الإعلام وزمر، وكساهم حُلل الانتصار والفَخَار وألبسهم أكاليل الغار.

---

(١) أعلن حافظ أسد عن سقوط الجولان قبل ٣ أيام من دخول جيش الاحتلال للجولان.

أُمتي كم صنمٍ مَجدتِه لم يكنْ يَحملُ طُهرَ الصَّنمِ

وأُفرج عن الشَّيخ وإخوانه، وخرجوا من السّجون ليجدوا الجولان أسيرًا محتلًا مَهِيض الجناح مثخنًا بالآلام والجراح.

يا للعجب! كان حاخامات اليهود يقودون المعارك ويتقدمون أمام الجنود، ويقرؤون التّلمود، ويرفعون الأعلام والبنود، فيما كان علماء الإسلام في غيابات المعتقلات يجدون العذاب والنُّكران والجحود. والشّعوب تغط في سُبات عميق تُصفق لكل طاغوت عُتُلٍ زنديق.

ولقد سمعت الشَّيخ يشكو تغافل النَّاس وتشاغلهم عنه في سجنه، وتقاعس كثير ممن كانوا يتوددون إليه عن زيارته في سجنه ومواساته في محنته مخافة أنْ يَمَسَّهم عذاب المجرمين.

سمعتُ أحد الحاضرين في أوائل أحداث الثّمانينيات يقول للشيخ في مجلس عزاء: «**نحن جندك يا أبا عبد الرّحمن، فامض بنا على بركة الله**» فتبسّمَ الشَّيخ والألم بادٍ على محياه وقال: «**لقد نصرتموني في سجني عام ١٩٦٧، وكنتم لي خير جُند وصحب**» فاستحيا الرّجل ولم يُحِرْ جوابًا.

رئيس الوزراء عبد الرّؤوف الكَسْم في محافظة درعا

زَارَ عبد الرّؤوف الكَسْم مُحَافظة درعا عام ١٩٨٠م، وكان يومئذٍ رئيسًا للوزراء في حُكومة الباطنيّين، مُدَىٰ[١] الإجرام وحِرَابه في بلاد الشَّام. كانت زيارة الكَسْم يَهْدُف إلىٰ دعوة الجماهير للالتفاف حول قائد المَسِيرَة حافظ أسد وحزب البَعث العربيّ الاشتراكيّ، والتَّحريض علىٰ جماعة الإخوان المسلمين، والسَّير وراء القيادة الأسديّة للقضاء عليها، واسْتِئْصَال خَضرائِها، وقتل رجالاتها وأبنائها، لأنهم العَقَبَة الكَؤود أمامَ إنجازات القائد والحزب وثورتهم المزعومة الموهومة!

أَرَادَ قادة الحِزبِ في مُحافظة درعا شيخًا يتكلمُ باسمِ العلماءِ، ويُسْهِمُ في تحقيق أهداف الزّيارة، يُعظم القائد وانتصاراته علىٰ شعبه، ويبارك مسيرته في الظّلم والطّغيان والاستبداد، ويَحشدُ الشَّعب في ثكناته، ويُهاجم الإخوان المسلمين ويُؤلبُ عليهم، ويَسِمُهُم بالتّآمُر علىٰ البلاد، ويَصِفُهم بِأَنَّهم عُملاء الصَّهْيُونية والإمْبرِيَالِيَّة، وكأنهم هم الّذين باعوا الجولان ودمروا قواعد الأمن والأمان في الأوطان، واغتالوا كرامة الإنسان، ويَنْبَغِي للمواطن السُّوري ألا ينسىٰ البرنامج التّلفزيونيّ الّذي كان يَصْدُرُ بعنوان (إخوان الشَّياطِين) وتُعرض فيه صور قادة الجماعة العظماء الّذين حَمَلوا رَايَة الشَّريعة الإسلاميّة السَّمْحَة الغَرَّاء وقاتلوا اليهود والإنكليز في سُوح الجهاد ومَيَادين الفِداءِ في فلسطين وقناة السّويس وغير ذلك من بلاد الإسلام. كان البرنامج يَعْرِضُ صور الشّهيد

(١) المُدَىٰ بضم الميم: مفردها مُديَة، وهي السِّكين.

الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨م، وصور القائد النِّحرير المجاهد مصطفىٰ السّباعي، والمفكر الكبير سيّد قطب، والشَّيخ الشّهيد مروان حديد والشَّيخ العلّامة سعيد حوىٰ والشَّيخ المحقّق عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وصار اتهام الجماعة بعمالتها للإمبريالية شعارًا يُرَدِدُهُ طلبة المدارس مدة طَوِيلة من الزَّمن حتىٰ نهاية تسعينيات القرن الماضي.

قَصَدَ بعضُ رجال المخابرات الشَّيخ عبد العزيز حتىٰ يُلقي كلمةَ العلماء فَأَبىٰ، واعتذر إليهم، وبَيّنَ لهم أنَّ القائد العظيم هو الّذي يفتح قلبه لأبناء شعبه كافة، ويُصغِي إلىٰ هُمومِهم ومُشْكِلاتهم وآلامهم وآمالهم وتَطَلعاتهم وآرائهم علىٰ اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم. ولا يليق أبدًا أنْ يُحَرِضَ أحدٌ القائدَ علىٰ أبنائه، وأنَّ الرّفق بالرَّعِية شأنُ القادة الكبار، فما وُجِد الرّفق في شيء إلا زَانَه، وما نزع مِنْ شيء إلا شَانَه، وهؤلاء الشّباب هم من أبناء الوطن والشّعب تتسع قلوب قادته لهم وتُنْصِتُ إليهم، وتستمع إلىٰ مطالبهم.

فانْصَرفَ أُولئك الأفّاكون عن الشَّيخ ولم يَجدوا عنده ضَالتهم المنشُودة، فأحسن الشَّيخ التَّخلّص منهم بلباقته المعهودة، أكرمه الله بعظيم غفرانه وفسيح جنانه.

وقَصَدُوا عند ذلك الشَّيخ سليمًا المِصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فرجَعُوا بِخُفَي حُنين، وقال لهم بصراحته المشهورة: «أَتُريدون منّي أنْ أُفْتِي بِقَتْلِ شباب المسلمين». وقد أَسَرَّها المجرمون في نفوسهم، وسُجن الشَّيخ سليم بعد ذلك كما أسلفنا، وقَضَىٰ في سِجنه شهيدًا، أسكنه الله فسيح جناته، وشَمِله بعفوه وإحسانه.

وَوَقَعَ هؤلاء المُجْرِمُون بعد ذلك علىٰ من ينطق بلسانهم، ويَسْعىٰ في تمجيد أصنامهم، وأوثانهم، ويَبدو أنَّهم وعدوهُ بلُعَاعَاتٍ من الدنيا الزّائلة فاستجاب لهم.

وَقَفَ ذلك الشَّيخ ـ عفا الله عنه[1] ـ خطيبًا في الجماهير المُحْتَشِدة الّتي سِيقَتْ إلىٰ ساحة الاحتفالات في المحافظة بِعِصِي الهَلع والقهر والخوف، وسياطِ الجَلّادِين الرَّعِيبَة، فقال ذلك الشَّيخ في كلمته: إنّ الأمّة العربيّة أنْجبت في تاريخها الطّويل العريق رجلين عظيمين: الأول محمَّد ﷺ [ولم يَذْكر شيئًا من دلائل نبوته وأخلاقه وعبادته وحسنه وإحسانه وهديه وإرشاده وجهاده].

والثّاني: حافظ الأسد، وشَرَعَ يُعددُ مآثره في البنـاء والتَّعمير ومسيرة التَّقدم والعطاء والتّحرير، وإنجازاته في الوحدة والحرية والاشتراكية، ومواجهة المشاريع الصّهيونيّة والأمريكيّة والإمبرياليّة إلىٰ غير ذلك من الأباطيل والأضاليل، وهاجم الإخوان المسلمين بضراوة، وكان في يوم من الأيام واحدًا من رجالاتهم ودعاتهم وخطبائهم وسَخِطَ النَّاس عليه، وشَتَمَهُ بعضهم في ساحة الاحتفالات، ورماه بأبشع النّعوت وأقذع الصِّفات، واشتملت كلمته علىٰ المضْحكات المُبكيات.

أرسلنا رسالة إليه [ولا أودُ ذكر اسمه] ـ رحمه الله وعفا عنه ـ وذَكَّرْناه بماضيه المجيد ومَوقفه التَّليد الحَمِيد في الدِّفاع عَنْ الإسلام والمسلمين، وكيف حادَ عن المنهج القرآنيّ الرَّشِيد عندما استخفَّ به أزلام النِّظام النُّصيريّ العفلقيّ الكفور الظّلوم فأطاعهم، وأَلْقَوْهُ في أَخاديد حقدهم، فكان جَمرة فيها تُحْرِق أهلَ الحَقِّ، وذَكَرنَا لَهُ في هذه الرّسالة عقائد هؤلاء الباطنيين النُّصيريين، الّذين أجمع علماء الإسلام في جميع العصور علىٰ كفرهم ومُروقهم، وأنَّه لا تَحِلُ ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، ولا يُؤتَمَنونَ عَلىٰ ثُغور المسلمين، فهم الذّئاب العاويات العاديات كلما سَنَحَت لهم الفرصة، وتاريخهم أسودُ مشؤوم، ملطخ بالكيد والمكر والكُفر والغدر، ولمْ نكتبْ له فيها تهديدًا ولا وعيدًا.

---

(١) إذْ بلغنا ندامته وتوبته بعد ذلك، لا بارك الله في مثلها ولا تقبلها.

وقدْ وصلت الرّسالة إليه وسمعنا بعد ذلك الموقف المَشِين: أنَّ رئيس أمنِ الدَّولة في درعا أعطاه مُسدسًا للدفاع عن نفسه، ونَفَثَ في رُوعه أنَّه غَرضٌ للإخوان المسلمين، وأنَّهم سيغتالونه، فعاشَ في رُعبٍ دائم يطارده الوَهَل والخَوف والوَجَل.

وحدثني من أثق به أنَّ هذا الشَّيخ طلب من رئيس أمن الدولة حمايةً شخصيةً فاعتذر له عن ذلك، وبَلغنا أنَّ الشَّيخ المسكين الذَّبيح بمُدىٰ هؤلاء الدَّجَاجلة نَدِمَ بعد ذلك نَدامة الكُسَعِي علىٰ ما قَالَه، ولكنْ سبق السَّيفُ العَذَلَ، ونسأل الله أنْ يكون قد ختمَ له بالخاتمة الحُسنىٰ عند انتهاء الأجل.

وسُقتُ ما سُقته لأُبَيّنَ موقف الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد في اللّزَبَات، وحِكْمَته في المُلمات، وتَعاليه علىٰ إرادة الطّواغيت، ورغبات الطّغاة والعُتَاة، ووقوفه في خندق شعبه وأمته في النَّائبات.

الشَّيخ وصلاة الغائب على الطَّاغية الهالك حافظ أسد

العلماء الرَّبانيُّون العاملون هم أشجع النَّاس، وأكرمهم نفوسًا، وأقواهم قلوبا، وأثبتهم جأشًا، وأبرّهم أفئدةً، وأكثرهم إقدامًا في نصرة الحق والذَّبِّ عن حياضه، وهم قادة الأمَّة الإسلاميَّة في الخطوب، وقدوة الشُّعوب في سوح الجهاد وميادين الحروب، وأصبرهم على مصاولة الطُّغاة المستبّدين، والغزاة المجرمين، تُخلِّد يراعة التَّاريخ مواقفهم في أسفار الخالدين، وهم ورثة سيِّدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام خاتم النَّبيِّين وسيّد المرسلين، ومن هؤلاء العلماء الربانيين شيخنا العلامة عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن مواقفه المشهورة المشهودة الَّتي لا يقوى عليها إلَّا العلماء الرَّبانيُّون العاملون العظماء: الموقف الَّذي صدع فيه بالحق يوم شاط طاغية الشَّام حافظ أسد على أرماح المنايا والحتوف، وأُعلِن نبأ موته في العاشر من حزيران عام ٢٠٠٠ للميلاد، وقد فرح بهلاكه المسلمون المستضعفون المعذَّبون الَّذين أنضجت جلودهم سياط الجلَّادين والثكَّالى اللَّواتي اختطفت فلذات أكبادهنَّ عصابات الشَّرِّ والإجرام والفساد والإلحاد، وألقت بهم في غيابات السجون، يذوقون فيها العذاب الهون، والأرامل اللّائي عُلِّق أزواجُهنَّ على أعواد المشانق في سجن تدمر الصحراويّ الكالح الوجه العبوس المحيا القاسي القلب البئيس الوجدان، والمهجّرون الّذين أُخرجوا من ديارهم قهرًا وعدوانا وهبَّت عليهم ريح الشَّنآن والطُّغيان وجذلت كلّ الجذل لهلكه مساجد الشّام ومنابرها ومآذنها

وقبابها وسهولها وأوديتها وجبالها وهضابها، وقرَّت برحيله إلىٰ الجحيم عين كلِّ مكلوم محزون مظلوم، وكلِّ حرٍّ شريف يَهوَىٰ الحريّة والعدل والكرامة الإنسانيَّة والنُّور، وتهوي نفسه إلىٰ مكارم الأخلاق والفضائل والقيم الرَّشيدة، وتعانق الحياة الحرَّة الكريمة الفاضلة السعيدة. ولا جرم أن هلاك رؤوس الكفر والطُّغيان وأكابر المجرمين والمفسدين نعمة إلَهية، ومنَّة ربانيّة تستوجب الحمد والشّكر: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

وفي الصَّحيحين من حديث أبي قتادة أنَّ النَّبي ﷺ قال في هلاك هؤلاء الطُّغاة الظَّالمين الَّذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وأضرابهم: «يستريح منه العباد والبلاد والشَّجر والدَّواب»[1]. وقد كان السَّلف رضي الله عنهم من العلماء والدُّعاة والمصلحين يفرحون أشدَّ الفرح بموت الظَّلمة المفسدين وهلاكهم.

وكيف لا يفرح المسلمون في الشَّام والأقطار والأمصار بهلاك حافظ أسد رأس الكفر والإفساد والإجرام؟! الَّذي دمَّر البلاد وقتل العباد وباع الجولان ودمر سوريا ولبنان واحتشد في خندق إيران الصفوية في حربها علىٰ العراق في ثمانينيّات القرن الماضي، وفعل الأفاعيل، ألحق الله تعالىٰ به ولده الكفور المجرم الغشوم الظَّلوم بشارًا وعصابته وأزلامه ورؤوس الكفر والطُّغيان في الأرض، وأراح منهم العالمين.

وسأذكر موقف الشَّيخ العلّامة عبد العزيز أبا زيد يوم أن طلبت وزارة الأوقاف من الأئمّة والخطباء إقامة صلاة الغائب علىٰ حافظ أسد إمام الخيانة والعمالة والإفلاس والإبلاس في المساجد والدّعاء له والتّرحّم عليه، سأذكر هذا الموقف الأغرّ المحجّل التّاريخيَّ الأصيل الجليل الّذي سجّله الشَّيخ

(١) رواه الإمام البخاريّ برقم: (٦١٤٧) ومسلم برقم: (٩٥٠).

عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ وذلك كما صوَّره الشَّيخان العالمان المربِّيان المجاهدان المهاجران: مطيع البطين ووهيب الحسنين وهما من علماء حوران الأفاضل الأجلاء ودعاتها المكرمين النبلاء حفظهما الله ورعاهما وبارك فيهما ووفقهما لخدمة الإسلام والمسلمين.

قال الشيخ مطيع البطين: «بعد موت حافظ الأسد عام ٢٠٠٠م تمّ الإيعاز من وزارة الأوقاف إلىٰ مديريات الأوقاف جميعًا لأجل إقامة صلاة الغائب علىٰ حافظ الأسد، كان المفتي في محافظة درعا وقتَها العلّامة الرَّاحل فضيلة الشّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، أدّىٰ الشّيخ مع النّاس صلاة الظّهر في مسجد المحطّة الكبير، وبعد صلاة الظّهر وقف الشّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لأجل أداء صلاة الغائب، لكنّه لم يقل نصلِّي علىٰ حافظ الأسد، ولم يدخل في الصَّلاة قبل أن يوضِّح للنّاس علىٰ مَن سيصلِّي حتّىٰ يقتدي المصلُّون به، كان حقًّا موقفًا تاريخيّاً يحتاج رجلًا تاريخيًّا مثل الشّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ. لقد رفع الشَّيخ صوته عاليًا ليسمعه من في المسجد جميعًا قائلًا: صلاةُ الغائب علىٰ من تصحُّ عليه الصّلاة من المسلمين.

لقد كان الشيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ثورةً قبل الثورة ورجل حقٍّ وموقف في وقت تعزُّ فيه المواقف يقول الحقَّ ويجهر به غير هيّاب ولا آبه بالعواقب.

ذكرتُ هذا المشهد المهيب والموقف الكبير للشَّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأنا أشاهد عبر وسائل الإعلام المتنوّعة مشايخ النّظام في الحجّ وهم يُمجِّدون بشّارًا الأسد، هؤلاء الّذين رأيتهم في عزاء الشّيخ عبد العزيز يقولون إنّه البقيَّة من سلف الأمّة الصَّالح وأنّهم علىٰ خطاه يمضون، لقد كذبوا والله،

ولو كان الشَّيخ عبد العزيز حيّاً لتبرّأ إلىٰ الله تعالىٰ من أمثال هؤلاء الَّذين أهانوا العلم وأمانته فهانوا علىٰ النَّاس جميعًا».

وقال الشَّيخ وَهِيب الحسنين[1]: كان الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حكيمًا غاية الحكمة في تعامله مع الأحداث الجسام التي تعصف بالبلاد؛ ولكنَّها حكمة تقودها شجاعة جسور، وهمَّة لا تضعف ولا تخور، ونفس أبيَّة لا تهون أمام كيد أهل الطّغيان والغشم والظّلم والشُّرور، وكان الشَّيخ يسعىٰ جاهدًا للمحافظة علىٰ أعماله الدَّعوية والعلميَّة والاجتماعيَّة والإنسانيَّة الَّتي تعود بالخير واليُمن والبركات علىٰ العباد، وإذاعة معالم الهدىٰ والبرِّ والرَّشاد، والوقوف أمام أمواج الغواية والفساد والإلحاد، ومن مواقفه المشهورة المشهودة الَّتي تعبر عن حكمته وشجاعته المعروفة المعهودة: أن وزارة الأوقاف عمَّمت علىٰ أئمة المساجد في المحافظات كافَّة بعد هلاك رأس الكفر والطغيان حافظ أسد في عام ٢٠٠٠ أمرًا بإقامة صلاة الغائب عليه، وبعد أن صلَّىٰ شيخنا العلَّامة عبد العزيز أبا زيد ـ رحمه الله تعالىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ

---

(١) الشَّيخ وهيب الحسنين عالمٌ داعية أصولي فَرَضِي،من مشايخ حوران وعلمائِها ودعاتها المكرمين، ومن رجالات الثَّورة السُّوريَّة المباركة المنصورة البارزين، ومن دعاة جمعيَّة دعاة إلىٰ الخير، تخرَّج في كليَّة الشَّريعة في جامعة دمشق، ودرس في الثَّانوية الشَّرعية ـ ثانوية الإمام النَّووي ـ في مدينة درعا منذ عام ١٩٩٤م وهي المدرسة المباركة التي أسَّسها شيخنا العلَّامة عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من خواصِّ تلاميذ الشَّيخ، ولمكانته العلميَّة العليَّة عند الشَّيخ وقربه منه وثقته به كلَّفه الشَّيخ بإدارة المدرسة الشَّرعيَّة، فغدا مديرًا لها عام ١٩٩٩م، وكان أهلًا لهذه المهمة النَّبيلة جديرًا بها وبقي مديرًا للثَّانويَّة إلىٰ أن تم إعفاؤه من عمله بأمر ظلوم غشوم من السُّلطة الفاجرة المجرمة الغادرة عملًا بمقتضىٰ المصلحة العامّة!! كذا زعموا، وذلك في عام ٢٠٠٨، وقد هاجر من حوران مع ثُلَّة طيِّبة مباركة من الدُّعاة والعلماء والأعيان والمجاهدين عام ٢٠١٧م، أبقاه الله تعالىٰ ذخرا للإسلام والمسلمين.

وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ـ فريضة صلاة الظُّهر إمامًا في النَّاس في جامع المحطَّة الكبير (جامع الشيخ عبد العزيز أبا زيد) وقف الشَّيخ وقال بصوت عالٍ يسمعه كل من في المسجد: «أيها النَّاس يرحمُكم الله تعالىٰ: صلاة الغائب علىٰ من تصحُّ عليه الصَّلاة من أموات المسلمين دون أن يذكر اسم الطَّاغية العتل الأثيم المثبور الهالك المقبور حافظ أسد من قريب أو من بعيد! وكبَّر وصلَّىٰ وصلَّى النَّاس خلفه.

وبعد صلاة الغائب لم يجر للهالك ذكر علىٰ لسان الشَّيخ، ولم يكن يخصَّه بالدُّعاء، وتفرق النَّاس وسرىٰ نبأ صلاة الشَّيخ في البلد سريان النَّار في الهشيم، وأزلام الطاغية يصولون ويجولون، ويملخون في الباطل ملخًا، ويجوبون أرجاء البلاد طولها وعرضها يسومون النَّاس سوء العذاب والموقف جدّ عصيب.

وخشينا أن يتعرَّض الشَّيخ بسبب هذا الموقف الجليل النبيل الشُّجاع للأذىٰ والمضايقات، وهؤلاء الطغاة المجرمون الأنذال لا يرحمون كبيرًا ولا صغيرًا ولا تنبجس قلوبهم الَّتي هي كالحجارة أو أشدّ قسوة بقطرة رحمة أو رأفة أو شفقة، ولا يوقِّرون عالمًا، ولا يرقبون في مسلم إلًّا ولا ذمامًا، ولكن الله تعالىٰ حفظ الشَّيخ من مكرهم وكيدهم، ومرَّ الأمر بسلام، والحمد لله ربِّ العالمين». انتهىٰ

عباءة المُحافظ!

كان الشَّيخ يحبُ إخوانه وأصدقاءه وطلابه حبًّا عظيمًا، ويَرفق بهم ويحرصُ على سعادتهم وسلامتهم، وأذكر أنَّه في صبيحة العشرين من شهر رمضان عام ١٩٨٠م، قامت أجهزة النّظام الباطنيّ النّصيريّ البعثي الكفور الغشوم الظّلوم بحملة مداهمات واسعة في مدينة درعا، اعْتقلتْ في أثنائها أربعة عشر أخًا من أبناء المحافظة، منهم الأساتذة الأجلاء الفضلاء: عبد الغني عَللو ومحمد علي الخَصاونة وشقيقه حَمَد الخَصاونة وآخرون وكنتُ أحد المعتقلين.

وألصّق المحققون التُّهم الكاذبة الجائرة بالمعتقلين، وأذاقوهم ألوان العذاب، وكان الشَّيخ يومئذ مسافرًا إلى إحدى الدّول الخليجيّة لإلقاء الدّروس والمحاضرات فيها بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك.

أراد رئيس فرع مخابرات أمن الدولة مُوفق الزُّعبي (أبو عزام) وهو من مدينة حماة أنْ يُظهر عضلاته على أبناء الإسلام، وأنْ يقول لقادته النُّصيريين الأقزام إنَّهُ عَين ساهرة على أمن فجورهم وطغيانهم، وأنْ يُرسل رسالة لهم أنَّه كلب أمين يحرس ثُغورهم، ومثله من حثالات ينتسبون إلى السُّنة كثير باعوا أنفسهم للنصيرية، النّصيرية الّذين أجمع علماء المسلمين سلفًا وخلفًا على أنهم من أشد الطّوائف عداوة للإسلام وأهله، وأنهم أكفرُ من اليهود والنّصارى لا يؤتمنون على ثغور المسلمين، ولا تُنكح نساؤهم ولا تُؤكل ذبائحهم.

ويجمع الباحثون الغربيون الّذين درسوا عقائد النُّصيرية على أن النّصيريين لا يدينون بالولاء للإسلام ولا للعرب ولا لسورية، ومنهم الباحث الفرنسي (مِيشيل سُورا) الّذي وصفهم بقوله: «**فهم أقلية دينية متقوقعة على نفسها لها عقائدها الخاصة المختلفة اختلافا جذريا عن عقائد المسلمين**».

وذكر في دراسته أنهم يحتقرون المرأة أيَّما احتقار ويبيعونها بالدرهم والدينار، وأنَّه هو تَمَكَّنَ بكل يُسرٍ وسهولةٍ من شراء فتاتين نصيريتين للخدمة واحتياجاته الجنسية.

وخَلَصَ إلى وصفهم بأنهم همج طفيليون وأعداء تاريخيون للإسلام وأهله، رعاع بحقيقتهم، وأنَّ وجوههم تُخفي الخُبثَ والأذى، يَمْتَهنون الفِلاحة والمِهن المتواضعة، وورثوا خرافات وعقائد لا علاقة لها بالإسلام، وأنَّ عقيدتهم تقوم على عبادة الشّخص وتقديس الّذين يَدّعون العلم والتَّواصل مع عليّ بن أبي طالب، الّذي يَدَّعون أنَّه إلهٌ يُصرّفُ الأمور، ويضع الأجنة في الأرحام، وأنهم يقدسون الخمر أيما تقديس.

ووصل إلى هذه النّتائج بعد دراسات ميدانية وسَمّى منْ رجال الطّائفة: زكي الأرسوزي، الّذي يرى أنّ التّاريخ العربي كان الجاهلية وليس الإسلام، وسَمّى أدونيس وحافظ أسد، وبين الباحث الفرنسي ميشال سورا كثيرًا من الحقائق عن هذه الطّائفة، وأن شخصيات من الكيان الصهيوني المحتل تَعُدُّ هذه الطّائفة من رعاياها وجنودها الّذين يرابطون خلف خطوط العدو، وعدوهم هم المسلمون السُّنة، وذكر إعجاب المسؤولين اليهود الّذين قابلهم بأداء حافظ أسد وضبّاطه النُّصيريين، وقد نجحوا في قتل كُل مَنْ كان الكيان اليهودي

يحاول الوصول إليهم في لبنان وسوريا[1].

وعلىٰ كل حال هذا استطراد ألوي عنه عنان يراعتي وأعود إلىٰ ما كنت بسبيل الكلام عليه.

أُفرج عن المُعتقلين بعد ٧ أيام، في ليلة ٢٧ رمضان ولعلها ليلة القدر، وذلك بعد وساطات كبيرة قام بها شيوخ من عشائر حَوران ووجهائها وعلمائها، ومنهم الشَّيخ العَلَم السَّعيد الشّهيد الفقيه الواعظ المربي الشَّيخ سليم المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ الّذي قضىٰ بعد ذلك شهيدا في سجون هذه العصابة المارقة عام ١٩٩٠م. بعد أنْ قضىٰ في سجنه خمس سِنين، ومنهم مفتي المحافظة الشَّيخ بركات الضَّمَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقبل الإفراج عنّا هدَّدَنا زبانية موفق الزُّعبي ومنهم خليل بَجْبُوج بإرسالنا إلىٰ سجون دمشق ليصب علينا العذاب صبًّا، لأننا لمْ نعترف بالحقائق الكبرىٰ، وهي التّآمر علىٰ سلامة القائد والحزب والثّورة والوطن والشَّعب، وأُخْرِجنا إلىٰ بَهو كبير، فإذا فيه شُيوخ حوران ومحافظ درعا مصطفىٰ مِيرو (من تل منين) وكان ولده تلميذًا عندي في الصّف الثّالث الإعدادي في ثانوية الحريّة الخاصّة بدرعا، يَغدو إلىٰ المدرسة ويَروح بسيارة خاصة وبحماية أجهزة المخابرات.

وألقىٰ محافظ درعا كلمة طنّانة رنّانة في مدح قائد المسيرة حافظ أسد الّذي تفضل بالعفو عنّا وكنّا نستحق عقوبة الإعدام لأننا ننتسب إلىٰ جماعة

---

(١) راجع هذا كله في كتابه: سوريا الدّولة المتوحشة. وقد اغتال النّظام الباطني هذا الباحث سنة ١٩٨٦م في لبنان. **وحبذا لو قرأ كل شاب وفتىٰ وفتاة كتابَه لِيَرَوا إعجاب حكومة الكيان الصّهيوني المحتل وضباطها وأجهزتها الأمنية بحافظ أسد وأزلامه الّذين قَتَلوا مِنْ أبناء الشَّام الشُّرفاء الأحرار في سوريا ولبنان مَنْ عَجَزَ الصَّهاينة عَنْ قَتْلِهِ.**

الإخوان المسلمين، وأسهب في الثّناء على شيطانه، ولن أُطِيل في وصف ما حصل.

أُفرج عنّا بعد السّاعة الواحدة ليلًا، وأذكرُ أني ذهبت مع بعض الإخوة المُفرج عنهم إلى مسجد السَّدِ في مدينة درعا مباشرة لإحياء اللّيل، واسْتُقْبِلنا بحفاوةٍ من المصلين.

ألقيت خطبة عيد الفطر في جامع المَحطة الكبير، على حين توافدَ المُحافظ والمسؤولون على الجامع العمري في البلد، وصلوا العيد فيه وخطب فيهم الشَّيخ العالم الجليل أحمد صَياصِنة.

بعد أسابيع لما جاء موسم الحج يَمَمَ الشَّيخ عبد العزيز شطر المسجد الحرام لأداء فريضة الحج، وكلفني بخطبة عيد الأضحى والجمعة، وفي مساء ليلة الأحد وقُبيل صلاة العشاء طرقَ عليّ الباب رجلان وأبلغاني أنَّ مسؤول شعبة الأمن السّياسي (وأظنُ أنّ اسمه خليل ضَروان، وكان برتبة مُقدم) يُريد أنْ يراني على عَجَل، وكان من محافظة دير الزّور.

لم يكن الرّجلان يحملان سلاحًا ظاهرًا وكانا لبقين في خطابِهما، ولم يفعلا ما فعله رجال المخابرات الأشاوس في صَبيحة العشرين من رمضان عند اعتقالي، وحملاني في سيارة بحفاوة وإكرام، وكان أحدهما من أسرة آل أبي نَبُوت برتبة رقيب على ما أذكر، ولما وصلتُ إلى مقر الشّعبة السّياسية أُذن لصلاة العشاء، فاستأذنتهما لأداء فريضة العشاء في جامع المحطة الكبير المُجاور لمقر الأمن السّياسي، والمطل عليه، فأذنا لي وقالا: ننتظرك بباب المسجد.

صليتُ العشاءَ ودعوت الله أنْ يلهمني السَّداد والرَّشاد، ويهب لي التّوفيق والحكمة ويربط على قلبي ويثبتني على الحق. وبعد الفراغ من صلاتي ذهب بي الرَّجُلان إلى مَبنى مقر الأمن السّياسي، فاستقبلني المقدم هاشًا باشًا مرحبًا، وأجلسني على كرسي فخم متحرك، ما جلست على مثله في حياتي كلها حتى في يوم عُرسي، وأنا الّذي زُجَّ بِي في شهر رمضان مع أساتذتي وإخواني في سجنٍ حالكٍ كالحٍ مظلمٍ غليظ القلب بائس الوجدان، لا تسكنه الجرذان والفئران.

وأكرمنا زبانيته بأنواع وجبات الكرم الثّوري التّقدمي الاشتراكي الّذي تَعَافه مجالس حقوق الحيوان بلهَ ما يسمى منظمات حقوق الإنسان.

قال لي المقدم: يا أستاذ، غدًا يوم عيد الأضحى وبلغنا أنك خطيب العيد وسَيحضر السّيد المحافظ مصطفى ميرو وكبار الشّخصيات في المحافظة، مسؤول أمن الدولة، ومسؤول الشّرطة العسكرية، ومسؤول الحزب، وشخصيات أخرى مهمة، ونُريد خُطبة تليق بالمقام...

وفي هذه الأثناء جاءني أحد العاملين بفنجان قهوة وكأس ماء، وقلت في نفسي تعسًا ونَكسًا لساسة حُرموا الفِطنة والكياسة وتبوؤوا مقام السّيادة والرّياسة في النَّاس يُمْلون على أَئِمة المساجد وخطبائها ما يريدون ليكونوا أبواقًا للمجرمين ومنابر للمفسدين.

وتابع المقدم يقول: نريد خطبة تتناول الأمور الآتية:

الأمر الأول: نُريد أنْ تُبين للمصلّين خطر عصابة الإخوان المسلمين الّتي تقف عقبةً كؤودًا أمام مسيرة التّحرر والتّقدم والنَّهضة الّتي يقودها السّيد

الرّئيس المناضل حافظ الأسد، وأبلغ النَّاس أنه ينبغي لهم أنْ يَنْحروا أبناء هذه العصابة أضاحي في هذا اليوم، فداءً للقائد والحزب والثّورة والشّعب والوطن، فلا يُمكن أنْ تسير مواكب الوحدة والحرية والاشتراكية الظّافرة إلا بالقضاء عليها واستئصال شأفتها للأبد.

الأمر الثّاني: نُريد الإشارة إلىٰ جُهود السّيد الرّئيس المناضل حافظ الأسد في إبرام معاهدة الدفاع المشترك بين سوريا الأسد والاتحاد السّوفيتي الصّديق! من أجل استعادة الجولان المحتل وتحرير فلسطين!

الأمر الثّالث: نُريد بيان جهود سيادة الرّئيس في تحقيق الوحدة العربية، فهناك مشروع الوحدة بيننا وبين ليبيا الشّقيقة، يقوده الرّئيس المناضل حافظ الأسد، وسيكون خطوة مهمة رائدة علىٰ طريق تحقيق الوحدة العربية الشّاملة أمل الشّعوب العربية من المحيط إلىٰ الخليج.

نظرت إلىٰ فنجان القهوة وكأس الماء فرأيتهما شرًا من السُّمِ الزُّعاف، وهؤلاء الأوباش القتلة يعاملوننا كقطعان تُقاد إلىٰ المذابح كالخراف، وغاب عن قيادتها السّادة الغطاريف الأشراف، وتسوسها الذّئاب وتَنْبحها الكلاب في غياب أولي النُّهىٰ والألباب، هكذا يُريد المُقدم أنْ يَمدح الطّاغوتَ ويُمَجِدَه ولو كانت أفعاله كفرًا بَواحًا وأقواله كذبًا صراحًا، ولا خَلاقَ له من وطنية أو إنسانية أو آدميّة، يُتْلىٰ حَمْده علىٰ المنابر وفي المحافل، وهو يَبني عرشه الذّميم علىٰ جماجم الشّرفاء والأحرار، وهذا أَقْتل داءٍ وأَعْظم بلاءٍ، ورحم الله محمود سامي البارودي حين قال:

إذا المرءُ لم يدفع يد الجور إن سطت عليه فلا يَأسَـــف إذا ضـــاع مَجْدُه

ومن ذلّ خوفَ الموتِ كانت حَياتُهُ أَضـــرّ عـلـيـه مـن حِـمـامٍ يَـؤدُه

وأقتـلُ داءٍ رُؤيـة العَينِ ظـالـمًـا يسـيءُ، ويُتلىٰ في المحافل حمدُه

قال لي المقدم: ما تقول أستاذ؟ سمعنا أنك رجل وطني.

وقَفَزَتْ إلىٰ مُخيلتي سياط الجلادين في رمضان وهي تأكل الأجساد وتنهش الأبدان، وصوت الجلاد والسَّجان وهُو يَصُمُ الآذان.

فقلت له: كلفني فضيلة الشَّيخ عبد العزيز بخطبة الجمعة فحسب، ولم يُكلفني بخطبة العيد، فإنْ حضرتم خطبة الجمعة فستسمعون ما يسركم.

وأنا أعلم علم اليقين أنَّ هؤلاء العَضَاريط[1] الرَّعاديد[2] لا يُصلون إلا العيد، وأنَّهم دجاجلة مَناكِيد. ولا يدخلون المسجد إلا في العيدين ومناسبة المولد النَّبوي الشّريف وهم علىٰ غير طهارة، أو عندما يتوفاهم ملكُ الموت عليه السّلام وينزل بساحتهم الموت الزّؤام، ويُؤتىٰ بهم إلىٰ المساجد رغمًا عن أُنوفهم ليُصلىٰ عليهم فيها.

فقال لي المقدم بنبرة فيها ضربٌ من الغضب، وتَفُوح منها رائحة الوعيد: أنتَ ـ كما علمتُ ـ خطيب العيد وستخطبنا غدا ونسمع منك خطابا يشفي صدور الحضور كما ذكرت لك.

قلت له: أنا ملتزم بتوجيهات شيخي.

قال وقد استبد به الغضب: هذا شيءٌ عجيب.

---

(١) العضاريط: جمع عضروط وهو الخادم علىٰ طعام بطنه. ويطلق علىٰ اللئيم أيضًا.

(٢) الرعاديد: جمع رعديد، بكسر الراء، وهو الذي يخاف ويرتعد ويضطرب عند القتال جبنا وهلعا.

واتصل من فوره بفضيلة المفتي الشَّيخ بركات الضَّمَّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وسأله عن خطبة العيد فذكر له اسمي ، فقلت له: دعني أُكلم فضيلة الشَّيخ المُفتي ، فسلمت عليه بحفاوة بالغة ، وكانت تربطني به مودة كريمة وصداقة حميمة .

وقلت للمفتي: يا سيدي أنا مُكلفٌ بخطبة الجمعة ، وستحضرُ أنتَ صلاة العيد والمقام يَقتضي أنْ تخطبَ النَّاس وتُصلي بهم ، وسأخطبُ الجمعة بعون الله تعالىٰ ، فوافق الشَّيخ المفتي ، وكلمه المقدم بعد ذلك ، وانفرجت أساريره .

صلىٰ بنا المفتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ صلاة عيد الأضحىٰ وخطبنا وكنت أجلس في الصّف الأول في أقصىٰ اليسار متخفيًا أرقُبُ النَّاس وما سيقوله الشَّيخ ، وذكرَ هذه الأمور الثّلاثة الّتي أشرتُ إليها آنفًا ، كما أراد المقدم . فطفق المصلون ينْسلونَ من المسجد تباعًا ولم يَبقَ في نهاية الخطبة إلا الجوقة الحاكمة الظّالمة الآثمة ، ورأيتُ المحافظ وهو يصافح المفتي ويضع العباءة علىٰ كتفيه .

ونَقَمَ المُصلون علىٰ الخُطبة والخَطيب ، وكان لها أثرٌ غير محمود . ونَجَّانِي الله تعالىٰ من شر أُريد بي .

وجاء يوم الجمعة وكنتُ أُدركُ أنَّ المقدم عَلَيَّ ناقمٌ ، يكادُ يتميزُ من الغيظِ ، وفكرت في موضوع خطبة الجمعة ، فآثرتُ أنْ يكون بعيدًا عن الأحداث الملتهبة الّتي تحرقُ الأخضر واليابس ، فتكلمتُ علىٰ اللّغة العربية ومكانتها ، وأثرها في فهم النّصوص الشرعية ، ووجوب نُصرتها والتَّمكين لها ، وأنها من مقومات وحدة الأمة .

عاد فضيلة الشَّيخ عبد العزيز بعد أنْ أدىٰ فريضة الحج ، وذهبتُ لزيارته والسّلام عليه وتهنئته والتماس الدعاء منه ، وكان قد عَلِمَ بموضوع خطبة العيد

فتبسم وقال لي: ماذا صنعت؟ فقلتُ له: هذا ما وَفقني الله تعالىٰ إليه فله الحمد. وجاءني بعباءة جَلَبها معه من الدِّيار المباركة، وقال لي: أليستْ هذه خيرًا من عباءة المُحافظ؟ وأَلبَسْنِيها بيديه الكريمتين وبقيت معي مُدة طويلة من الزّمن، ثمّ أهديتها لأحد المشايخ الأفاضل في اليمن السّعيد فرّج الله كربته وأعاد إليه عزته.

وعَلِمتُ بعد ذلك أنَّ المُقدم حنقَ من خُطبة الجمعة، وزَعَمَ أنّي اتهمتُ الدولة والمسؤولين فيها بإهمال اللّغة العربية والتَّفريط في جنبها، وأنَّه كان يروح ويجيء في غرفته وهو يستمع للخطبة، لأنَّه لا يُصلي إلا يوم العيد مع أركان نظام مجرمٍ خَوّانٍ رعْدِيدٍ قَتَلَ الأُباةَ الصِّيد الصّناديد، الّذين حملوا راية الإسلام بصبرٍ ثابتٍ وعزمٍ عنيدٍ. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

حزب الإمام النَّوويّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فَرَغْتُ مَنَ التَّدريس في يوم خميس في ثانوية الحرية الخاصة بدرعا، (فرع الشَّيخ مسكين)، ووقفتُ على قارعة الطَّريقِ الرّئيس، أنتظر سيارة تُقِلُّنِي إلى مدينة درعا، واحتشدَ على الطّريق أُناس كثيرون مثلي، ومرتْ سيارة (لاند روفر) وتجاوزتني بعدة أمتار، ووقفتْ على جانب الطّريق، وظَنَنْتُ أنَّ أحَدَ أصدقائي العاملين في مؤسسات الدولة قد رآني وأراد أنْ يحملني على هذه الرّاحلة.

وفوجئت بشيطانٍ يخرج رأسهُ من النَّافذة ويُطِلُ منها، ويُنَادِيني بأقبح الألفاظ وأسوَأِ الكلمات، والسَّيارة تعودُ إلى الخلف، ونَزَلَ من السّيارة شابٌ قويُ البِنية وفتح باب السّيارة ودَفَعني إلى داخلها بقوة وعنف وغلظة وهو يَتَقَلَدُ سِلاحه الآلي، ورآني بعض طلبتي الّذين أُدرسُهم.

واتجهت السّيارة نحو مدينة الإمام النّووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الّذي شَرُفَتْ به مدينة نَوى وبلاد الشَّام وأُمة الإسلام، فهو صاحبُ التَّصانيف المفيدة والآثار العلمية الرّشيدة والورع العظيم، وهو من العلماء الكبار العُزاب، الّذين آثروا العِلم على الزّواج.

وبعد ذلك توقف السّائق على جانب الطَّريق بعيدًا عن المارة وكان يُحيط بي بطلان، أحدهما عن يميني وهو الّذي دفعني إلى السّيارة وآخر عن شمالي.

ولقـد أرانِي للرِمَـاح دَرِيئَـة مِنْ عَنْ يَميني تَـارة وشِـــمالي

وكان البطل الّذي أصدر الأَوامر يجلس في الأمام ومعه مسدسه الّذي يرفعه أمام وجهي مُهددًا متوعدًا. فتَّشنِي الرَّجلان تفتيشًا دقيقًا، وقائدهما يعطرني بالشتائم، ويُوجه إليَّ الأسئلة واللَّكمات، ماذا تفعلُ هنا؟ ومن أين أتيت؟ وماذا تحمل في حقيبتك؟

ووجد معي حزب الإمام النَّووي رضي الله عنه وهو مجموعة أوراد وأذكار، جمعها الإمام النَّووي، طُبع في مكتبة الحَلبوني، وعربَدَ جُنون الرَّجل وازدادتْ لكَمَاته وطَفِقَ يَنتف شَعر لِحيتي بيده القوية، ولعل اللّحية من أسباب الحقد الّذي تُكِنّه صدورهم.

وكان سلاح البطلين المرافقين في خاصرتَي اليمنىٰ واليسرىٰ، والسّائق يده علىٰ المِقود ونظره إلىٰ الأمام، وسألني قائد المجموعة عن حزب الإمام النَّوويّ الّذي أنتسب إليه؟ وعدد أعضائه؟ وأسلحتهم وعملياتهم التّخريبية الّتي قاموا بها؟ وعن وجود النَّووي قائد الحزب ومكانه؟

ضحكت في سِري والموقف جِدٌ لا هَزْل، وذكرتُ لهُ أنَّ الإمام النَّووي عالم عظيم من علماء الإسلام، توفي عام ٦٧٦ للهجرة، وهو مدفون في مدينة نَوَىٰ القريبة منا، وأنّ كلمةَ حزب لا تعني حزبًا سياسيًا، وإنما هي مجموعة أوراد وأذكار كان الإمام النَّووي يردّدها في الصّباح والمساء، وفيها خيرٌ وبركةٌ لمنْ يُحافظ عليها.

ولم يُصدق مقالتي وظَنّ أنّي أكذب عليه، وأصَرَّ إصرارًا عجيبًا علىٰ معرفة النّووي رئيس الحزب ومكان وجوده، وأعضاء حزبه وصِلَتي بِهم،

وأَعدتُ عليه مقالتي وذَكَرتُ لهُ بعض مؤلفات الإمام النَّووي، منها: مِنْهاج الطَّالبين وعُمدة المُفتين، والرَّوضة، والأذكار، وتهذيب الأسماء واللُّغات.

ويبدو أنَّ الرّجل اقتنع بعد أنْ ذَكَرَ له بعض جنوده الّذين كانوا معه أنَّ قَبْرَ النَّووي في مدينة نوىٰ حقًا، وصَادر المجرم حزب الإمام النَّووي الّذي كان بحوزتي.

ولما رأىٰ بين أوراقي شهادة تخرجي في جامعة دمشق وحصولي علىٰ إجازة في اللّغة العربية وورقةً تُثبتُ حصولي علىٰ الدبلوم الخاصّ العالي، قال لي بلهجة غاضبة وبِلكنته النُّصيرية القَمِيئة المَقْبُوحة مثله ومثل نظامه الباطنيّ اللّعين: أنا تَخرجْتُ في الجامعة قبلك وأحفظ ثلاثة أرباع القرآن، وأنتمْ أيها السُّنة كلاب مجرمون خونة ـ وحاشا أهل السُّنة ـ واليهود والنَّصارىٰ خيرٌ مِنكم بكثير.

وصدق فيه المَثَل المَشْهور: (رَمَتني بِدَائِها وانْسَلَّتْ)، أَمَرَ هذا الحقود الجحُودُ القَزَم بالإفراج عني في المعتقل الصّغير (سيارة اللّاند روفر) وشعبنا كله في سجن كبير منذُ عُقود ويَذوقُ ألوان النَّكَال والعذاب، تُستباح حُرُماته، ويُسفَك دَمُه، ويُباعُ وَطَنه، وأَلقاني علىٰ قارعة الطّريق.

وانطَلَقَتْ سيارته الّتي اشتراها نُظامه وغيرها من أسلحة وعَتَادٍ للدّفاع عن البلاد والعباد، فكانتْ لحماية كيانِ يَهُود، وتدمير الشّعب وقتل أبنائه، واغتيال قادته المُخلصين وعلمائه العاملين، انْطلق بسيارته لا يَلْوِي علىٰ شيءٍ يَبْحثُ عن صَيْد آخر...

ذَهبتُ بعدَ عودتي إلىٰ شيخنا العالم الجليل عبد العزيز أبا زيد وحَدَّثته بما صَنَعَ هؤلاء القَتَلة الحاقدون فتألمَ كثيرًا ودعا الله تعالىٰ بالفرج القريب.

وفي صباح يوم السّبت ذَهبتُ إلىٰ المدرسةِ وسألني طلابي الّذين رأوني يَقتادني أولئك الأشقياء، فقلت لهم مُمازحًا هؤلاء أصدقائي، وقد أكرموني وأحسنوا إليّ. فضحكوا، وقالوا: يا أُستاذ هذا مسؤول فرع مخابرات الشَّيخ مِسْكين، وذَكَروا يومئذ اسْمه وقد نَسِيتُه، وهو نُصيري وأُميٌّ جَهولٌ ضِليل، سِكّير عِربيد لا يَحمل الشّهادة الإعدادية، والغٌّ في أموال النَّاس بالباطل، سيِّئُ السّيرة، يَعرفه كلّ أهل هذا البلد بسوء فِعاله وخُبثه ومَكره وسُكره وعُهره.

ذَهبتُ مع شيخنا الشَّيخ عبد العزيز إلىٰ مقر أمن الدَّولة في درعا، وكان يَرْأَسه المقدم موفق الزّعبي، (أبو عزام) من مدينة حماة، ويَنوبُ عنه نصيريّ ونصرانيّ وجُلُّ العاملين فيه من أبناء محافظة درعا، ومنهم المُحقق خليل بَجْبوج المساعد في فرع أمن الدّولة، وقَدْ آذىٰ أبناءها كثيرًا إرضاءً لأسياده النُّصيريين، ونَكَّل بشباب درعا ونُبلائها، عليه من الله ما يَسْتحق.

اسْتَقبل موفق الزّعبي شيخنا بالإكرام والحَفاوة والإجلال ورَحَّبَ به، وقَصَّ الشَّيخ عليه ما صَنَعه بي مسؤول فرع الشَّيخ مسكين، وسمعَ منّي بعض تفصيلاتها، واعْتذر عن هذا الفعل، وعَدَّهُ تصرفًا فرديًا لا يُعَبِرُ عن سياسة الدّولة الرّاشدة الّتي ترعىٰ الوطن والمواطن!

تّذكرتُ الأحقادَ والضَّغائن والعداوة والبغضاء الّتي تَمُوج في نفوسِ هؤلاء الباطنيين الأشقياء وعُقدة النَّقص الّتي تَسْتَحوذ علىٰ نفوسهم الشّريرة، وتجتاح كياناتهم الذَّميمة القميئة، ولا رَيبَ أنَّ مسؤول هذا الفرع وأَضْرابَه حاقدون علىٰ كلِّ مُتَعلم وعلىٰ كلِّ مَنْ يَحملُ شهادة عِلمية، يُؤذيهم منظر الوثائق الجامعية ويَغِيظهم حاملوها، وقدْ أَخفق هؤلاء المسؤولون كل الإخفاق في حياتهم الدِّراسية، وفي مدرسة الحياة، فَغَدَوا سُيوفًا مشرعةً بأيدي الظّالمين تغتال العلم والعلماء في شامنا المبارك، وكم كانوا يَسْتَشيطون

غضبًا ويَتَميزون غيظًا من إخواننا الّذين زُجَّ بهم في غيابات السّجون وغياهبها المظلمة، وهم يَحْمِلون أرقىٰ الدَّرجات العلمية وأعلىٰ الشّهادات الجامعية، والجهلة المُستبدون هم حِرابٌ مسمومة في نَحرِ العِلمِ والإبداع والابتكار وطلائع جيوش المحتلين الغزاة في وطننا الإسلامي الكبير.

إلىٰ الله أشـــكو أنَّنَا في منازلٍ تَحَكَّـــمُ فـــي آســـادِهِنَّ كـــلابُ

سألت الإخوة الحمويين عن موفق الزّعبي وسيرته في حماة، فذكروا من خُبْثِ طَوِيته ومكره بأهل الإسلام وإيذائه لهم الشّيء الكثير.

وكان في درعا من مدينة حماة الأستاذ العالم المُربي الجليل محمَّد علي الكيلاني (أبو رجاء) ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وجزاه عن الإسلام خيرا ـ جاء إلىٰ درعا بعد أنْ فُصِلَ من التَّدريس وكان يَحْمل إجازة في الشّريعة، وعُيِّنَ في دائرة الزّراعة، كانت لنا معه جلسات ولقاءات وسهرات علمية، ولمْ يَضَن علينا بتوجيهاته القَيّمة، وإرشاداته النَّافعة، ونصائحه النَّفيسة.

وكان موفق الزّعبي يستدعي من حين إلىٰ حين الأستاذَ محمَّد علي الكيلاني للتّحقيق معه كما أخبرنا بذلك بنفسه، ويَسأله عن نشاطه الدّعويّ وعلاقاته، ويُحذره من عَين الدّولة البَصِيرة السَّاهرة علىٰ الأمن، والّتي تُراقب أعمال الخارجين علىٰ القانون ونشاطاتهم، وتَرصُد حركاتهم وسكناتهم وعلاقاتهم، إنَّهم حُراس اليهود حقًا.

وفاؤه لأساتذته وشيوخه

كان الشَّيخ يَذكرُ أساتذته الّذين تفقه عليهم وأفاد منهم بالإجلال والإكبار والتّوقير والثّناء الكثير المِعطار، ويلهج لسانه بالدّعاء لهم والتّرحم عليهم، لا يفتأ يذكر سيرهم الحميدة ومواقفهم المجيدة، وجهودهم في إذاعة العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وبذل النّصيحة للمسلمين وحرصهم على طلابهم وتفانيهم في تعليمهم، وإرشادهم وإفادتهم وإذكاء روح الجهاد فيهم لقتال المُحتلين الفرنسيين الّذين دنَّسوا الشَّام الطَّهور.

وأذكر أنَّه بعد فراغنا مِنْ درسٍ في الفقه الشّافعي، أخرج لنا مجموعة من الصّور الّتي كان يَحتفظ بها لهؤلاء العلماء الأفاضل الأجلاء الّذين قرأ الشَّيخ عليهم. وأذكر منهم:

الشَّيخ العلّامة المُصلح علي الدِّقر وأخذت عيناه تفيضان بالدموع، وأخذ يدعو لهم وشرع يذكر المواد الشّرعية الّتي كان يُدرّسها هؤلاء العلماء الأماثل وعلومهم الغزيرة ومناقبهم وفضائلهم ومآثرهم وأخلاقهم ومساعيهم الحميدة في التّربية والتّعليم والإصلاح.

وكان الشَّيخ أيضا يذكر إخوانه الّذين كانوا معه في أيام طلب العلم، ويثني عليهم ويُكِنُّ لهم الحبّ العظيم. وأذكر منهم الشَّيخ العلّامة عبد الكريم الرّفاعي، وكانت تلك الأيام في حياة الشَّيخ أحلى أيام العمر وأغلاها بمنزلة الرّبيع من الزّمان.

احتفاء العلماء بالشَّيخ وتوقيرهم له

كان علماء الشَّام يَقْدُرون الشَّيخ حق قَدْره، ويُكِنُّون له خالص الوُد، ويقابلونه بالتّوقير والتّقدير والإجلال، ويَعرفون فضله وعلمه وجهوده في نصرة الإسلام والمسلمين.

كنتُ أُواظب على درس الثّلاثاء في جامع زيد بن ثابت في أثناء دراستي في جامعة دمشق قسم اللّغة العربية، وكان يلقيه فضيلة الشَّيخ العالم المربي الدكتور محمَّد عوض وهو من أجلِّ تلاميذ الشَّيخ عبد الكريم الرّفاعي قدرًا وأطيبهم أثرًا، وكان الشَّيخ عبد العزيز كما أسلفت يثني على الشَّيخ عبد الكريم الرّفاعي كثيرًا، ويدعو له، ويسرد بعض ذكرياته العطرة معه عندما كَانَا معًا على مقاعد الدِّراسة.

جاء الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد إلى جامع زيد بن ثابت وكان الشَّيخ محمَّد عوض يُلقي درس الثّلاثاء القيم الأسبوعي، الّذي يَحْفِلُ بالمواعظ النَّفيسة الجليلة، وبيان الأحكام الشّرعية والآداب والفضائل والأخلاق الإسلامية، وتربية الأذواق وتهذيب النّفوس، ورأى الشَّيخ محمَّد عوض الشَّيخ عبد العزيز وهو يدخلُ المسجدَ فقطع درسه وسَارع إلى الشَّيخ وقبل رأسه وأجلسه في صدر المسجد، واحتفى به احتفاءً عظيما ورجاه أن يلقي الدَّرس عنه، فاعتذر الشَّيخ إليه ودعا له بخير.

وقد رأيت صورًا كثيرة من توقير علماء الشَّام للشيخ وإكرامهم له وتقديرهم

لعلمه وفضله ومكانته، أذكر أني حضرتُ احتفالاً مهيبا بمناسبة المولد النّبوي الشّريف في جامع بدر، حضره كبار علماء الشَّام ومنهم الشَّيخ المجاهد حسن حَبَنَّكَة الميدانيّ شيخ الشَّام وعالمها، والشَّيخ الفقيه المقرئ عبد الرّزاق الحلبيّ، والشَّيخ العالم المربي صالح فرفور، والشَّيخ حسين خَطَّاب شيخ قراء الشّام، وغيرهم. ووفد الشَّيخ عبد العزيز على مسجد بدر في تلك اللّيلة المباركة فأكرمَ العلماءُ وفادتَه، واستقبلوه أحسنَ استقبال، وأجلسوه بينهم في محراب المسجد، وألقى الشّيوخ كلماتهم الرّائقة ومنهم الشَّيخ الخطيب البليغ إمام المسجد نور الدين قره علي، على ما أذكر.

فَسَمتْ النّفوس وعرجت الأرواح في معارج الخير والذّكر والشّكر، وصَوَّر الخطيب جلالَ الرّسالة الإسلامية وجمالها وكمالها، وأنها رسالة الإنقاذ للبشريّة بأُسلوبٍ عذبٍ جميل أخاذ.

وبعد انتهاء حفل المولد، أقبل العلماء وطلاب العلم يُسلمون على الشَّيخ ويُصافحونه ويُقبلون يدهُ، وهو يمتنع، وأشهدُ أنّ أهل الشَّام يحبّون علماءهم ويُجلونهم ويعرفون أقدارهم.

طرف من مواقف سيِّدي ووالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

حكىٰ هذه المواقف الكريمة المباركة الغرَّاء ولد شيخنا الأخ الشَّيخ العالم الفقيه الدَّاعية محمَّد بن عبد العزيز أبا زيد[1].

الموقف الأوَّل: حكىٰ لي الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّه كانت له في أثناء دراسته في دمشق ـ عاصمة الأمويين بلد العلم والعلماء الرَّبانيين والقادة الفاتحين والأئمَّة المصلحين والمجاهدين ـ في كلِّ ثلاثة أيَّام ختمة لكتاب الله ﷻ حيث كان يقرأ في كلِّ يوم عشرة أجزاء: يقرأ قسما في قيام الليل، وقسما في

(١) الشيخ محمَّد بن عبد العزيز أبا زيد هو نجل شيخنا العلَّامة عبد العزيز أبا زيد، ولد في مدينة درعا عام ١٩٧٨م، وتلقىٰ العلم الشرعي منذ نعومة أظفاره علىٰ والده العلامة الشيخ عبد العزيز أبا زيد، ودرس في ثانوية الإمام النووي ومعهد الفتح الإسلامي، وتولىٰ الخطابة في مسجد العلامة عبد العزيز أبا زيد عام ١٩٩٧م، وبقي خطيبًا فيه إلىٰ عام ٢٠١١م.
كان رئيس لجنة الثَّانوية الشَّرعية ثانويَّة الإمام النووي للذُّكور والإناث، ومسؤول صندوق الأسر المتعفِّفة المستورة بعد وفاة الشيخ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ. سعىٰ في عام ٢٠٠٦م مع جماعة من أهل الفضل لتأسيس جمعية خيرية للرعاية الصحية باسم والده العلامة الشيخ ورفض ذلك الأمن القومي.
أسهم في الثَّورة السُّورية المباركة المنصورة منذ أول انطلاقتها الأولىٰ في محافظة درعا، وكان رئيس الوفد الشَّبابي الذي قابل الطَّاغية ابن الطَّاغية بشَّارًا الأسد، اعتقل وحكم عليه بالإعدام بتاريخ ٢٠١١/٥/١٦، وألغي حكم الإعدام بتاريخ ٢٠١١/٥/٢٤ بعد استشهاد أربعة إخوة مع والدهم من عائلة الأبا زيد ودفنهم في مقبرة جماعية، هاجر بعد ذلك مع أسرته الكريمة المباركة إلىٰ الإمارات والأردن، حاصل علىٰ بكالوريوس في الدّراسات الإسلامية ويتابع الآن دراسته للحصول علىٰ درجة الماجستير في التّخصص نفسه، وله جهود مباركة في العمل الدّعوي والخيري ونصرة الثّورة السّورية المباركة. وفقه الله تعالىٰ، وأبقاه ذخرا للإسلام والمسلمين.

صلاة التهجد، وقسما بعد صلاة الفجر، وفي السَّنوات الأخيرة كانت له في كلِّ عشرة أيام ختمة.

وكان الوالد حريصا على قيام اللّيل، وشرف المؤمن قيام الليل، وعِزُّه استغناؤه عن النّاس، ولا أذكر أنّي صحوت ليلةً من اللّيالي إلّا وجدت الوالد مصليًّا أو قارئًا للقرآن أو ذاكرًا لله ﷻ.

وقبل أن يتوفّاه الله تعالى بعشرة أيّام كنت أودُّ أن أفتتح محلًّا لبيع ألبسة الأطفال في مدينة درعا، وكان ذلك يقتضي السفر إلى دمشق من أجل هذا الأمر لشراء ما أحتاج إليه، وكنت قبل سفري أدخل إلى غرفته أُقبِّل يده ورأسه ويدعو الله ﷻ لي بالتَّوفيق والعون والتَّيسير وعبارته المشهورة: اذهب راشدًا، يسر الله لك أمرك.

وفي أحد الأيام وهو اليوم الثَّالث من أيام سفري بعد أن قبَّلت رأسه ويده ودعا لي خرجت من غرفته فلما وصلت إلى باب الغرفة ناداني بصوت عال على غير عادته: يا محمّد، فقلت له: نعم يا سيّدي، مرني بما شئت، هل من خدمة أقدّمها لك؟ فقال لي: اذهب راشدًا، أسأل الله العظيم أن يلطف بك. وطاف في نفسي السؤال الآتي: لماذا ناداني والدي هذه المرَّة بصوت عالٍ؟ ولماذا قال لي في دعائه: أسأل الله العظيم أن يلطف بك، وكان دعاؤه لي فيما سبق: يسَّر الله لك أمرك؟.

وسافرت إلى دمشق واشتريت بعض الملابس، وفي أثناء عودتي حدث ما لم يكن في الحسبان، لم أعد أتحكَّم بمقود السَّيارة وفقدت السَّيطرة عليها بصورة تامّة، وكنت مسرعًا، فخرجت السَّيارة عن مسارها في الطَّريق، وانقلبت بي ثلاث مرّات، وكان الحادث أليمًا ومن رأى ما حلَّ بالسَّيارة من الخراب

والأذىٰ ـ وقد غدت كتلة من حديد ما خلا مكان جلوسي ـ أيقن أن راكبها صار في عالم الآخرة ولم يعد من أهل الدُّنيا، ووالله الذي لا إله إلا هو ما أصابني خدش ولا جرح ولا رَضّ وكنت صائمًا وقد أظلّنا شهر رمضان المبارك، واتّصلت بوالدي الحبيب وأحطته خبرًا بما حصل، و قلت له: ربما أتأخر قليلًا، وقد وصلت إلىٰ البيت قبل أذان العشاء بقليل فوجدته لم يطعم شيئًا، وقال لي وقد رأىٰ ما ركبني من الهمِّ وغشيني من الحزن: لن أذوق الطعام حتىٰ تطعم معي، وقال: لعلك قلق مشغول البال ثائر البلبال علىٰ تصليح السَّيارة، وأخبرته أن تصليحها ضرب من المُحال، وإذا تم إصلاحها فإن ذلك سيكلف مبلغا كبيرًا جدًا من المال، ولا طاقة لي به، فقال لي: لا تقلق ولا تحزن، سيجعل الله بعد عسر يسرًا، والله الذي لا إله إلا هو سيتم إصلاحها، وأقسم ثلاث مرات بلسان الواثق بالله تعالىٰ أن إصلاحها كائن لا محالة، ولن تكلفك شيئا ذا بال، وعجبت من هذه الثِّقة العجيبة التي تملأ أرجاء فؤاده، وتوكيدها بالقسم. وتمّ إصلاحها بعد ذلك بثمن قليل ولم يصدق أحد من الأصدقاء والأحباء ما رأىٰ، إذ عادت السَّيارة الَّتي تحيفها العطب من كل جانب إلىٰ الحياة من جديد بعد كلّ ما حلّ بها، وظهرت في حلّة جميلة بثمن قليل.

وقد استجاب الله تعالىٰ دعاء الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، فلطف بي لطفًا يليق بجلاله وكرمه وإحسانه، وهيأ الله تعالىٰ للسّيارة من أصلحها بثمن قليل جدًا.

وتلك والله عندي كرامة من كرامات الشّيخ الوالد وما أكثرها.

الموقف الثَّاني: قبل وفاة الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بليلة واحدة كانت العادة أن أنزل من غرفتي إلىٰ غرفة الوالد، وأجلس عنده، وأدثره في فراشه إلىٰ أن ينام وأتركه وأخرج من غرفته وبعد أن أَخَذَتْه سِنَةٌ من النَّوم سمعته يردد بصوت

مرتفع: لا إله إلا الله، ثلاث مرات، فأيقظته من نومه، وقلت له: يا والدي الحبيب هل هناك شيء فقال لي: لا، فقلت له: لو أصلحت نومتك، كأنك غير مستريح فيها، فدخل إلىٰ عالم النَّوم مرة أخرىٰ وبعد أن وَلَجَه قام من نومه وقال لي: يا محمّد، قلت: نعم، فقال لي: ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩] وقال لي: هذه الساعة آتية لا ريب فيها، وكرر ذلك عدَّة مرّات، وكان ذلك في ليلة الأربعاء، وأوصيك بتقوىٰ الله ﷻ، والاستقامة، وأداء الأمانات، وهي مسجَّلة في الدَّفتر الفلاني، وأوصيك بالثَّانوية الشَّرعية خيرًا، فهي أمانة في عنقك، وأوصيك بأختك خيرًا (يعني ابنته أسماء ولم يكن للشَّيخ ابنة غيرها) تصبح علىٰ خير، ووضع رأسه علىٰ المخدة ونام. وفي الليلة الثَّانية وهي اللّيلة الّتي توفي فيها وهي ليلة الخميس بعد أن نام الشَّيخ غبت عنه عشرين دقيقة، وعدت إليه وفي التَّوقيت الّذي استيقظ فيه في اللّيلة الماضية وأوصاني بالوصايا التي ذكرتها كانت ساعة الوفاة، إذ فاضت روحه إلىٰ بارئها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ.

الموقف الثّالث: أصيب الشّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في عام ١٩٩٨ باحتشاء في عضلة القلب، وعندما يكون جالسًا وحده يطلب مني أنشودة معينة، وهي:

يـــا خـــالـــق الأكـــوان بـــالـــلّـــطـــف عـــامـــلـــنـــي

مـــا لـــي عـــمـــل يـــرضـــيـــك أنـــت الـــغـــنـــي عـــنـــي

ويبكي ويقول: والله ما لي عمل يرضيك عاملني بالإحسان واللطف يا الله يا ربّ العالمين، وكان يطلب هذه الأنشودة مرارًا وتَكرارا، وهي المفضلة عنده، وكلّما فرغت من إنشادها طلب إعادتها إلىٰ أن منَّ الله تعالىٰ

عليه بالشفاء، وزال عنه السَّقم، ورحل عنه الألم وعاد إلىٰ حياته الطبيعيّة، وكان بعد ذلك يطلبها بين الفينة الأخرىٰ. نسأل الله تعالىٰ أن يعاملنا بالإحسان وأن يجمعنا به تحت لواء سيّدنا محمّد ﷺ سيد الرّسل والأنبياء.

الموقف الرابع: سبحان الله العظيم أنا أحيانًا أفسّر بعض الأحداث وأربط بعضها ببعض، في عام ١٩٩١ أو عام ١٩٩٢ كان علىٰ الوالد دين قدره اثنا عشر ألف ليرة سورية، ودخلت الوالدة رَحِمَهَا ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنها الفردوس الأعلىٰ إلىٰ غرفة الضيوف وقامت بتنظيفها وترتيبها بصورة لائقة كعادتها، وأوصدتها، ودخل الوالد الغرفة ووجد فيها بعد ثلاثة أيام كيسا لا أزال أتذكره إلىٰ الآن، لونه أزرق، وفيه جريدة وضعت فيها أشياء، وحين فتح الوالد الكيس وجد فيه مبلغا من العملة اللبنانية فسأل الوالدة: هل دخل أحد إلىٰ البيت هل جاءنا ضيوف؟ فقالت له الوالدة: لم يزرنا أحد منذ ثلاثة أيام، منذ أن نظّفت غرفة الضّيوف ورتبتها وأغلقتها، وترك الوالد المبلغ مدة طويلة من الزمن وكان يسأل الناس هل نسي أحد عندنا مبلغا من المال أو وضع أحد عندنا مبلغًا من المال؟ فما وجد له صاحبا، وبعد السؤال المتواصل والتّحري الطويل ذهب الوالد إلىٰ أحد محلات الصِّرافة وصرف المبلغ إلىٰ العملة السّوريّة، وإذا هو يساوي اثني عشر ألف ليرة سورية وهو مقدار الدّين الّذي كان في ذمّة الشّيخ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وإلىٰ يومنا هذا لم يظهر أحد ادّعىٰ أنه وضع عندنا مبلغًا من المال أو تركه أو نسيه.

الموقف الرابع: لم يكن الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يستعمل أقلام مكتب الإفتاء إلا فيما يخص الإفتاء، وكان لديه قلم خاصّ به، يكتب به ما يخصّه ويأبىٰ أن يستخدم أقلام الإفتاء في قضاياه الخاصّة أو القضايا التي لا تتعلّق بالإفتاء، وكذلك الأوراق المتعلّقة بالإفتاء ما كان يستعملها إلا في قضايا الإفتاء

وشؤونه ومتعلّقاته، وهذا شأن الوالد في حياته كلّها، وقد اشترى القرطاسية الّتي تخصُّ دائرة الإفتاء مرَّة واحدة فقط منذ أن تسلم هذا المنصب إلى أن تركه. وكان يفيد من ورق المفكِّرة والرُّزنامة الذي كان يعدّ تالفًا ويستخدمه في كتابة المسودات الخاصّة بدائرة الإفتاء ولا يستعمل الأوراق العادية في كتابة هذه المسودّات.

ولم يكن الوالد يقبل أن نستعمل سيّارة دائرة الإفتاء في الأمور الخاصّة أبدًا، وإذا حصل شيء من ذلك دفع ثمن وقود السيارة من ماله الخاصّ وكان يحسب المسافة التي تستعمل فيها السيارة في الأمور الخاصّة.

الموقف الخامس: لمّا ذهب الشّيخ الوالد إلى الكويت من أجل جمع التّبرعات لصالح الثّانوية الشّرعية أعطاه بيت الزكاة الكويتي مبلغًا لإنفاقه في القضايا المتعلقة بالثَّانوية الشَّرعية وجاءه شخص كريم مفضال بمبلغ من المال، وقال له: يا فضيلة الشَّيخ، هذا المبلغ من مالي الخاص وليس من مال بيت الزَّكاة ولا من أية جهة خيريَّة أخرى؛ وذلك من أجل أن تبني لنفسك بيتا آخر محترمًا يليق بمقامك وأنت كثير الضيفان.

وجاء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ بهذا المبلغ، ونحن لا نعلم، ووضعه كاملا في حساب الثَّانوية الشَّرعية ولم يستفد منه بشيء البتة، وكان المبلغ أربعة عشر مليون ليرة سورية، وكان ذلك في بداية التسعينيات.

وفي إحدى السّنوات جاء مدير بيت الزّكاة الكويتيّ إلى درعا من أجل الاطّلاع على أوضاع الثّانوية الشّرعية وحاجاتها، وعاج على بيتنا، وسألني مدير بنك الزّكاة: أليس للشيخ عبد العزيز بيت سوى هذا البيت، فقلت له: ليس له غيره، فبدا عليه الاستغراب والاستعجاب والاندهاش.

ولما سأل الوالد عن بيته الآخر، وكان يظن أن الشيخ بنىٰ بالمبلغ الذي أهدي إليه منزلا فخمًا، اصطحبه الشيخ إلىٰ الثانوية الشرعية وقال له: هذا بيتي، هذا بيتي.

لقد وضع الشّيخ المبلغ كله في حساب الثّانوية الشرعية وأنفقه في مصالحها، وما علمنا بهذا الأمر إلا بعد وفاة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

لقد زانه ورع متين وكان زاهدا في الدنيا مقبلًا علىٰ الآخرة عاملًا لها أسأل الله أن يبني له بيتا في الفردوس الأعلىٰ.

قلت: كان علىٰ فضيلة شيخنا الحبيب المبارك العلَّامة عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في العام الّذي هاجرت فيه مع إخوة صدق صبر عام ١٩٨١ دين قدره (٨٠٠) ليرة سورية

رحم الله تعالىٰ الشيخ، لقد كان من الذين قال فيهم القائل والأبيات تنسب إلىٰ الإمام الشافعي محمد بن إدريس الذي قال فيه تلميذه الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

«كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للبدن فهل ترىٰ لهذين من خلف أو عنهما من عوض»؟.

إن لله عبيبيس عبادا فطنا ... طلَّقوا الدُّنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لجَّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

من أقوال طلبة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

نَهَلَت من ينابيع علم الشّيخ وعَلَّت جموع غفيرة من طلبة العلم، وأفادت من جميل خصاله وكريم فعاله وصالح أحواله وقد نطقت ألسنتهم بالثَّناء عليه، والدُّعاء له والتَّرحم عليه.

ومن هؤلاء الطلبة المكرمين المباركين المقربين إلىٰ الشَّيخ تلميذه الشَّيخ العالم العامل الداعية المربي المجاهد خالد زين العابدين أبو عبد الرحمن حفظه الله تعالىٰ ورعاه[1]، وبارك فيه وسدَّد خطاه، ولا زال أهلا لخدمة الإسلام والمسلمين، درس علىٰ الشّيخ في مدرسة الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وتخرَّج فيها وأتم دراسته في كلية الشريعة في جامعة دمشق وتخرج فيها، وكان يحبُّ الشَّيخ حبًّا عظيما، ويحرص كلَّ الحرص علىٰ الإقبال عليه والإفادة منه والتلقي عنه حتىٰ غدا علما من أعلام حوران الَّذين يشار إليهم بالبنان، وسأنقل طرفا من أقواله:

---

(١) الشيخ خالد محمد زين العابدين، ولد في بلدة تسيل، محافظة درعا عام ١٩٧٤م، ودرس فيها الابتدائية والإعدادية، تخرج في ثانوية الإمام النووي عام ١٩٩١م، وتخرج في كلية الشريعة من جامعة دمشق عام١٩٩٥م، وحاز شهادة الماجستير من جامعة الباشا كشهير في الفقه وأصوله عام ٢٠٢١م، إمام ومدرس وخطيب في عدد من المدارس والمساجد، عضو في المجلس الوطني وأول رئيس مجلس لمحافظة درعا الحرة، من رجال الثورة السورية المنصورة المباركة البارزين، وعضو في جمعية دعاة إلىٰ الخير ومسؤول العمل الدعوي في الداخل السوري المحرر فيها، همة علية وروح أبية ونفس رضية، تعرض لمحاولات اغتيال آثمة من أذناب العصابة الباطنية الكبتاغونية المجرمة، فوقاه الله شرها، أبقاه الله تعالىٰ ذخرا للإسلام والمسلمين.

قال وفقه الله تعالىٰ: كان الشيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يسعىٰ منذ زمن بعيد لتأسيس ثانوية شرعيَّة في مدينة درعا إيمانًا منه بوجوب تربية جيل من العلماء العاملين الرَّبانيين الَّذين يدعون إلىٰ الله ﷻ علىٰ هدىٰ ونور وبصيرة، ويكونون للأمة والأوطان أعظم عدَّة وخير ذخيرة، وفغرت الصِّعاب أمام هذا المشروع أفواهها، وكشَّرت عن أنيابها، ونبحته كلاب الفجَّار، وعوت عليه ذئاب الأشرار الَّتي غدت أشدَّ فتكا من الذِّئاب في البوادي والقفار، وأستذكر في هذا المقام قول الأُحيمر السعدي وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وكان لصًّا فاتكا ماردا:

عوىٰ الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوىٰ وصوَّت إنســـــان فكدت أطير

لأن العلم هو الدَّعامة الأولىٰ في بناء الأجيال المؤمنة السّائرة في مواكب الإيمان والعزّة والإباء، والطّغاة أعداء العلم الذي ينازل رجاله المستبدّين والمحتلين في ميادين الكفاح وسوح الفداء، وكلّم الشيخ رئيس الوزراء محمودا الزعبي والجهات المختصة ولم يحصل علىٰ الموافقة، وبعد رحلة طويلة من الصَّبر والجهد الدَّؤوب والتَّعب والعناء (وما العناء إلا في الابتداء) والمرابطة علىٰ ثغور الدُّعاء وصدق الالتجاء إلىٰ الله ﷻ أكرم الله تعالىٰ الشَّيخ بما يؤمل، وشرع الشَّيخ في بناء الثَّانوية الشَّرعية علىٰ مساحة كبيرة من الأرض بعد شرائها، ووضع حجر الأساس، وذلك علىٰ وفق المخطَّط الذي أقرته الدَّولة، وجمع لها التَّبرعات من المحسنين، وكان يضرب أكباد الإبل إلىٰ الكويت والإمارات ودول الخليج وذوي الأيادي البيضاء من أبناء حوران، وتمَّ افتتاح الثَّانوية الشَّرعية عام ١٩٨٧م. وبعد أن فرغ الشَّيخ من بناء هذا الصَّرح العلمي العظيم للطلاب شرع في تشييد الثَّانوية الشَّرعية

للطَّالبات إيمانًا منه وتصديقا بوجوب تعليم المرأة المسلمة وتربيتها؛ لأنَّها الرُّكن الرَّكين في بناء البيت المسلم وصناعة الأبطال الذين يدافعون عن دينهم وشعبهم وأوطانهم ويسدُّون الثُّغور بعدما انفرجت بالحجَّة والبيّنات وقائم السَّيف ويغسلون عن أمَّتهم العار والذُّل والحيف.

وقد انتسبت إلىٰ الثانوية الشرعية ثانوية الإمام النووي عام ١٩٨٨م.

كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يحرص علىٰ التدريس علىٰ الرَّغم من كبر سنِّه ويجد قرَّة عينه وسعادة نفسه في تدريس طلبته وإفادتهم، وقد درَّسني الفقه الشَّافعي وعلم الفرائض، وما رأيته قطّ جالسا علىٰ الكرسي، وإذا مسّته نفحة من نصب أو تعب خلع الحذاء من قدمه اليمنىٰ، ووضع قدمه علىٰ الكرسي، وقد يضع اليسرىٰ أحيانا، وهكذا هم أصحاب الهمم الّذين ترقىٰ الأمَّة بهم إلىٰ الذّرا والقمم، ولا تسل عن روح الدعابة عند الشّيخ في أثناء التّدريس، فهي فيه طبع وجِبِلَّة؛ إذ كان يرفق كلّ حكم فقهي بحادثة لطيفة أو قصّة طريفة حتىٰ ترسخ المسائل في عقول الطلاب، وكنا نتذكر أحيانا الحكم الشَّرعي من خلال تذكر القصة الجميلة التي كانت تصحبه ولا تفارقه، وهذا شأن الأساتذة العمالقة الكبار.

وكان الشَّيخ يكفل نفقات المدرسة الشَّرعية والمدرسين والطّلاب ويخصّص لكل طالب مئةً وخمسًا وعشرين ليرةً في كلِّ شهر وكان هذا المبلغ يكفيني أجرة الذهاب والإياب من بلدة تسيل إلىٰ مدينة درعا، ويهب المكافآت في العيدين: الفطر والأضحىٰ وفي المناسبات الإسلاميّة لإدخال السّرور علىٰ القلوب وجبر الخواطر، ويجمع ذلك من المحسنين، ولم تكن وزارة الأوقاف والتّربية تسهم في هذا العمل الإسلامي الحضاريّ الإنسانيّ

بفلس واحد، وشلّت أيدي المفسدين، ولا نامت أعين المفلسين.

وكان الشّيخ يشرف على جمعية البرِّ والإحسان الخيريَّة التي كانت تقوم على كفالة الأرامل واليتامى، وكان هناك بناء لليتامى إليه يأوون، وكانت هناك امراة فاضلة تطبخ لهم الطَّعام، وتشرف عليهم وتقوم على شؤونهم ويذهبون إلى مدارسهم ويعودون إلى مسكنهم، وكان الشيخ يقدم رواتب شهرية للأرامل، وكلّ ذلك من تبرّعات المحسنين جزاهم الله خير الجزاء.

وكانت للشّيخ ثلاثة دروس أسبوعية في جامع المحطّة بين المغرب والعشاء، نحضرها أحيانا كثيرة، ويحضرها طلاب العلم، ولا يتأخر الشيخ عنها إلا إذا طاف به عذر قاهر أو ألم به ظرفٌ قاسٍ.

وكان الشّيخ يشارك أهل حوران كافَّة أفراحهم وأتراحهم، ويُسهم في إصلاح ذات البين في بلدات حوران، وكان له في كلّ بلدة أحبَّة وأصدقاء وإخوان، هم عون له على طوارق الحدثان وغدرات الزَّمان.

وكان له قبول غريب عجيب عند النَّاس جميعًا، القاصي منهم والداني، لدى الإسلاميّين وغيرهم، تكسوه حلل المهابة الوقار حيثما حلّ أو نزل أو سار؛ لما حباه الله تعالى به من علم وصدق لهجة وتواضع وإخلاص وإيثار، وقد كتب الله تعالى له هذا القبول في قلوب الناس، وما رأيت من ينتقده أو يعترض عليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

وكنا إذا زرنا الشيخ نخرج وقد ازددنا إيمانا يملأ قلوبنا ويقينا يسري في عوالم أرواحنا، وهكذا كانت نسمات روحه الطيبة المطمئنة المحلقة في عوالم الذكر والطاعة والعبادة تنساب إلى قلوب من يجالسونه أو يخالطونه.

كان الشّيخ لا يهاب أحدا، يقول كلمة الحق لا تأخذه في الله لومة لائم.

جاء أحد أقاربنا من الخليج فاعتقله زبانية الطّاغوت الباطني، وذهبتُ إلىٰ الشّيخ ألتمس مساعدته، فقال لي: لو ذهبت إلىٰ أعضاء مجلس الشّعب وكلّمتهم، فقلت له: يا سيدي لا يجرؤ أحد منهم علىٰ الكلام مع رجال الأمن وكان الأمر عند مسؤول المخابرات هشام بختيار، فقال لي الشيخ كلمة مازلت أذكرها إلىٰ الآن: سأذهب إلىٰ هشام بختيار، لقد نزع الله تعالىٰ مهابة هذا الرجل وأضرابه من قلبي، فلا أخشىٰ إلا الله وحده لا شريك له، ومن خاف الله تعالىٰ خافه كلُّ شيء، وقد ذهب الشَّيخ إلىٰ المجرم الظَّلوم الخَتَّار هشام بختيار، وكلّمه في شأن الرَّجل، وفرج الله تعالىٰ عنه، ورجع آمنًا إلىٰ سربه.

كان كثير من الناس يأتون إلىٰ الشَّيخ ويطلبون منه الوصيَّة، ويقولون له: أوصنا يا شيخ، فكان يقول لمن يطلب منه الوصيّة: قل آمنت بالله ثم استقم.

ذهبنا مرة مع الشّيخ في رحلة إلىٰ بستان وارف الظّلال، سقاه مضاعف الغيث العميم، دعانا أحد المحبّين وكنّا مجموعة من طلاب العلم، فجلسنا مع الشّيخ وأفاض علينا من روائع كلمه وجميل حكمه وأنفاس روحه وأقباس علمه وعظيم تجاربه، فجاء ديك حسن المنظر، ووقف أمام الشيخ، وأخذ يصيح بصوته العذب، ولم يفارقنا حتىٰ رجعنا من الرحلة.

بعد تخرجي من الثّانوية الشَّرعية درست في كلية الشّريعة في جامعة دمشق وتخرجت فيها بفضل الله تبارك وتعالىٰ وكرمه، وعدت إلىٰ الشَّيخ، وكنت أوَّل طالب تخرّج في الجامعة من طلاب المدرسة الشَّرعية مع زملائي الَّذين سبقوني من طلاب الدّفعة الأولىٰ الَّتي تخرّجت قبلي في المدرسة الشَّرعية، وكلَّفني الشَّيخ بأن أخطب في جامع بلال في درعا البلد في حارة الأبازيد وقد كان.

وأصبحت بعد ذلك مُدرّسًا في الثَّانوية الشَّرعية، وبقيت مدرسا فيها إلىٰ أن قامت هذه الثَّورة السُّورية المباركة المنصورة .

أذكر أن أحد الإخوة المدرِّسين في المدرسة الشَّرعيَّة حلق رأس الشَّيخ وقصَّر لحيته، وكان فرحًا مسرورًا بأن ظفر بهذه المكرمة، ولكنَّه قصَّر لحية الشيخ دون القبضة، ولمَّا فرغ نظر الشَّيخ إلىٰ نفسه في المرآة، وقال له: غفر الله تعالىٰ لك، قصَّرت اللحية، فخجل الشَّاب وأُحرج، وسُقط في يده، فلما رآه الشيخ علىٰ هذه الحالة قال له مخفّفًا عنه: لا تحزن، بضاعة مخلوفة.

كان علماء الشّام يأتون لزيارة الشَّيخ، ويقولون له: جئنا نتقرب إلىٰ الله ﷻ بزيارتك، وذلك من شدّة محبتهم وإجلالهم له.

كان الشَّيخ مع تقدمه في السِّن يقوم بشؤون نفسه، ويغدو ويروح، ويداوم في الأوقاف في مكتب الإفتاء، ويعود إلىٰ البيت، وقد توفي في ليلة الثّالث والعشرين من شهر رمضان المبارك، عام ٢٠٠٢م.

ولما توفي الشيخ ودفن في المقبرة قام الشيخ العلامة أسامة عبد الكريم الرفاعي علىٰ قبره، ودعا له، وتكلَّم علىٰ مكانة الشَّيخ العلميَّة والدَّعويَّة والاجتماعيَّة ومحبَّة النَّاس له، وسأل الحاضرين عن سرِّ هذا القبول والمكانة الّتي يحظىٰ بها، فقالوا: السّبب هو حب الشيخ لله ﷻ ولرسوله محمّد ﷺ، وقد تجسّد ذلك الحبُّ أقوالًا وأعمالًا وأحوالًا، والحرقة الَّتي تملأ قلب الشَّيخ علىٰ ما حلَّ بالإسلام وأهله من المحن والخطوب والآلآم التي تهوي لها الجبال الشمّ الرّاسيات.

كان الشيخ يحبّ الحلوىٰ كثيرًا، وإذا شرب الشّاي ملأ نصف الكأس سكرا، والنّصف الثّاني من الشّاي، ويشربه حارًّا، ويقول عبارة يصف فيها

حبَّه للشَّـاي: إنه يحبّ أن يشرب الشّـاي حتىٰ تلصق الشفة بالشفة وتحرق الشفة ، هذا هو الشّاي المفضّل عنده .

كان يشارك تلاميذه أفراحهم وأتراحهم ، وحين تزوَّجتُ جاء إلىٰ الحفل ، وألقىٰ فيه كلمةً بليغةً ، وهنَّأني ودعا لي ، وسُرَّ سرورًا عظيمًا ، ولمَّا رزقني الله تعالىٰ بابنتي الأولىٰ آلاء ، وعققت عنها زارني في البيت وأجلس البنت في حضنه وحنَّكها ، ودعا لها باليُمن والتَّوفيق والبركات رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ .

كان الشَّيخ يحبُّ زوجته الثَّانية أمَّ محمَّد حبًّا كثيرًا ويُثني عليها ، ويذكر خصالها الحميدة ، وكانت من بيت المقداد من بُصرىٰ الشَّام ، وكان أبوها من كبار القُضَاةِ ، وقد رزقه الله تعالىٰ منها ثلاثةَ أولاد وهم: أسماء ومحمّد وأحمد حفظهم الله تعالىٰ وبارك فيهم. وكان الشَّيخ يقول: من أراد العيشة الهنيَّة الرَّضية السَنيّة فليتزوج امراة مقداديَّة ، وكان الشيخ أحيانًا يسجع في كلامه سجعًا جميلًا محبّبًا إلىٰ النَّفس ، ويأتي السّجع علىٰ ما جرىٰ به الطّبع من غير تكلّف ولا تعسّف .

وأما زوجته الأولىٰ أمّ عبد الرحمن رحمها الله تعالىٰ فكانت من أقاربه ، ولها في نفس الشّيخ مكانة كريمة ومنزلة عظيمة ، وقد مسَّها الضُّر وأقعدها المرض ، وكانت صابرة محتسبة ، ووهب الله تعالىٰ له منها ولدين: عبد الرحمن وقد أنعم الله عليه بذريّة مباركة ، وعدنان وقد توفي صغيرًا ، ولم يتزوّج الشّيخ عليها حتىٰ توفاها الله تعالىٰ ، وكنت أسمعه يقول: إنّه ما كان يود أن يتزوج عليها زوجة ثانية مخافة ألا يعدل ؛ لأن الذي لا يعدل بين زوجاته يأتي يوم القيامة وشقه مائل . وكان يذكر ذلك ويحذر من ظلم الزَّوجات ، ومن مَغَبَّة عدم العدل بينهن ، عندما كان يدرّسنا مادّة الأحوال الشَّخصيَّة في الصَّف العاشر ،

وكان الشَّيخ يُميل شقه حتىٰ ترسخ المسألة في عقولنا. رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ، وجزاه الله تعالىٰ عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وجمعنا به في الفردوس الأعلىٰ إنه سميع قريب مجيب. (انتهىٰ كلام الشَّيخ: خالد زين العابدين أبي عبد الرحمن حفظه الله تعالىٰ ورعاه).

ويطيب لي أن أنقل شذرات يفوح منها عطر الحبّ والوفاء والإجلال لشيخنا خطه قلم أخينا الحبيب الشيخ الدكتور أحمد ياسين الزعبي أبي النّور وهو من حمائم مسجد درعا المحطّة مع فتية بيض الوجوه شمّ الأنوف وقد سعدنا بصحبة شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد مدة من الزمان كانت إنسان عين الزَّمان قبل أن تبطش بنا وبشعبنا وأمتنا عصابات الظلم والشر والعدوان وتمكر بأهل الإيمان والقرآن والإحسان، وتدمر الإنسان والأوطان والعمران.

وما أجمل قول القائل (الشّاعر القروي):

لا شيء في الدّنيا أحبّ لناظري من رؤية الخلّان والأصحاب
وألذ موسيقىٰ تسرّ مسامعي صوت البشير بعودة الأحباب

وما أحسن قول القائل (البحتري):

وخليل لا أرهب الدّهر ما دمت أراه والدهر جم الصروف

نبت هؤلاء الشّباب نباتًا حسنًا طيبًا مباركًا فيه علىٰ عين شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وسقىٰ قلوبهم وعقولهم وأرواحهم بوابل علمه الغزير المدرار، وجميل خلاله وكريم فعاله وصالح أعماله، ولازموه ملازمة عظيمة إلىٰ أن نكَّلت بهم العصابة الباطنيَّة الكافرة الغادرة الَّتي دمَّرت البلاد وقتلت العباد وأهلكت الحرث والنَّسل، وتفرقوا أيادي سبأ فمنهم من كتب

الله تعالىٰ له الشَّهادة، ومنهم زُجَّ به في غيابات سجن تدمر الصَّحراوي، ومنهم ضرب في الأرض شرقًا وغربًا تهفو نفسه إلىٰ يوم أغرَّ عظيم يعود فيه إلىٰ بلاد الشام المباركة بعد هلاك هذه العصابة الحاكمة الباطنيَّة الكبتاغونيَّة المجرمة الفاجرة، وقد كان ذلك بثورة أهل الشام المباركة المنصورة وكان الشيخ الدكتور أحمد ياسين الزعبي من هؤلاء الإخوة المهاجرين الذين مسَّهم لفح الطغاة المستبدين وهجير ظلمهم وطغيانهم.

وصف الدّكتور أحمد في مقاله النَّفيس علىٰ موقع رابطة العلماء السوريين الصّادر في السَّابع من شهر جمادىٰ الأولىٰ ١٤٤٣ للهجرة يوافقه الحادي عشر من شهر ديسمبر عام ٢٠٢١ الشيخ عبد العزيز أبا زيد بقوله: «هذه شذرات أذكر فيها مواقف من حياة شيخنا العلّامة الفقيه التَّقي الزَّاهد بقية السَّلف الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد بركة مدينة درعا ومنطقة حوران». وقال أيضًا: «وإذا ذكرت محافظة درعا ومنطقة حوران في مدن سوريا ذكر الشيخ عبد العزيز أبا زيد فقد جمعت في شخصيته وذكره» وتحدث عن المزايا والصّفات الّتي حبا الله تعالىٰ بها الشيخ وقلّ أن تجتمع في غيره وهي: العلم الشرعي المنهجي الذي تلقّاه عن شيوخه ومنهم: الشيخ بدر الدين الحسني محدّث الدّيار الشّاميّة، والشّيخ العالم العلم المربي علي الدّقر، والمنزلة الاجتماعيّة، فالشيخ من أسرة عريقة في حوران تبوَّأت منزلة اجتماعيَّة كبيرة ولها تاريخ طويل أصيل، والحكمة والمنهج والاعتدال والتَّوسط في المنهج الدَّعوي الَّذي سلكه الشَّيخ، وخدمة قضايا المسلمين في المدينة، والهيبة والوقار مع حسن الهندام.

وقد فصل الدكتور أحمد القول في هذه المزايا فأجاد وأفاد وأحسن جزاه الله خير الجزاء.

ولعلي أزيد على ذلك القدوة الحسنة في حياة الشّيخ إذ كان عملا صالحا يتجسم، وأخلاقًا نبيلةً تتكلّم، ودعوةً وجهادًا وزهدًا وورعًا يُحتذى ويترسّم، إضافة إلى الجانب الحركي في حياة شيخنا العلّامة؛ إذ كان الشّيخ مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في حوران، وأحد أعلامها الكبار المشاهير، والأب الرّوحي للإخوان في محافظة درعا، وقد سعت الجماعة جاهدة إلى إعادة الإسلام إلى الحكم والقيادة وبناء الدولة التي تعيد إلى المسلمين عزّتهم وحريَّتهم وكرامتهم وتحمي أوطانهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم، وتعيد الأمة الإسلامية إلى دورها القياديّ الحضاريّ الإنسانيّ في العالم بعد غياب شمس الخلافة العثمانيّة الإسلاميّة العظيمة، وقدّمت الجماعة قادتها وأبناءها شهداء سعداء كرماء في سوح الجهاد والفداء في جهاد أعداء الإسلام أعداء الحياة الإنسانية الرشيدة.

وقد ذكرت ذلك في هذه الرسالة المتواضعة التي تحبو على استحياء بين يدي شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلى.

موقف منيف عجيب!

ونُوردُ هنا هذا الموقف المنيف الّذي يـدل علىٰ هيبة الشَّيـخ ومكانته ووقاره وعلو منزلته ، وقد روىٰ هذا الموقف عدد من الأفاضل الأماثل ومنهم الأستاذ **الدكتور أسعد الأسعد**[1] الّذي التّقىٰ الشَّيخ وشُغف به حبًا ، لما رَأىٰ فيه من كريم الخصال ، وجميل الخِلال وعظيم الفِعال وعلمٍ غزير وأدب جمّ وخُلقٍ كريم ، ونورد هذا الموقف كما ذكره الدكتور أسعد الأسعد ونثبته كما كتبه بنصه:

من أغرب ما سمعت عن الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد وجيه حوران وعالمها ومفتيها كان شرفًا عظيمًا لي أن ألتقي الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد قبل وفاته بقليل فيمن التقيت من أعلام حوران بصحبة ثلة من وجهاء حوران وعلىٰ رأسهم جد أولادي إبراهيم العاسمي في زيارة خاصّة سمحت لي أن أتعرف علىٰ هذا العلم عن كثب فأسمع حديثه وأرىٰ النّور في وجهه والهيبة والوقار في محياه لتؤكد سيرته العطرة الّتي سبقت لقياه.

أسرني مشهده وهو يتوسط مجلسه في ديوانه في هيبة ووقار وقد تحلق

---

(١) الدّكتور أسعد الأسعد: من أبناء محافظة حمص مدينة سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ ، وهو دكتور فاضل متخصص في علم الإدارة والموارد البشرية ، شغوف بصحبة العلماء والإفادة منهم ، وله جهود محمودةٌ مشكورةٌ في الدّعوة إلىٰ الله ﷻ ونصرة الثّورة السورية المباركة ، منها تأسيس وإدارة مركز الأمل للدعم النّفسي والتطوير الشخصي ، وهو مركز دعوي تربوي في مدينة أنطاكية جنوب تركيا تَؤُمه جمهرة من أبناء الجالية السورية المهاجرة..

حوله الأعيان والوجهاء وطلبة العلم بين سائل ومستفت وطالب شفاعة وهو يواصل حديثه الممتع الرّزين دون كلل أو ملل كمن يغرف من بحر. لا جرم وهو عالم حوران ومفتيها ومن أكابر أعيانها ووجهائها الّذين لا يرد لهم قول ولا أمر.

خرجنا من عنده وقد أسرني ما رأيت ووعيت لنكمل جولتنا بزيارة مدير أوقاف درعا في بيته السّيد عايش شحادات أبو صائب وكان حينها بصحبتنا وكان رجلًا متكلمًا دمثًا طيب المعشر، وحين ضمنا المجلس لم أخف حينها اندهاشي مما رأيت من علم الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد وسمته وهيبته وورعه.

فرد الأستاذ عايش أوَأَعْجَبَ مِنْ ذلك؟ ـ وهو الّذي لازم الشَّيخ سنين طويلة ـ بحكم عمل الشَّيخ مفتيًا وعمل السّيد عايش في إدارة الأوقاف للمنطقة الجنوبية وصحبتهما الطّويلة في حلّ المشكلات القبلية في حوران، والّتي لا تكاد تنتهي.

فقلت مبادرًا: وما هو أعجب من ذلك؟

فقال مسترسلًا: رأيت من ورع الشَّيخ وتكريمه مِنْ قِبَل أعلىٰ مستويات السُّلطة في سورية وأعيان البلد وأكابر علمائها الكثير خلال أكثر من أربعين سنة قضيتها برفقته، إلا أن أعجب ما رأيت منه ويرقىٰ إلىٰ مستوىٰ الكرامة ولا يكاد يُصَّدق ما حصل معي شخصيّا.

سكت برهة وتابع حديثه قائلًا: دُعيت في إحدىٰ السَّنوات فِيمن دُعي من منسوبي وزارة الأوقاف والشّؤون الدينية السّورية لحضور أحد المؤتمرات الدولية في إسطنبول ـ حرسها الله تعالىٰ ـ يحضره أكابر العلماء وممثلو

الشّؤون الدّينية من مختلف بلدان العالم، كنت يومها رئيسًا لوفد سوريا لهذا المؤتمر في مجموعة كبيرة من المرافقين ولم يكن بينهم الشَّيخ عبد العزيز.

ولمحبتي واحترامي للشيخ مررت لأودعه قبل سفري من درعا إلىٰ دمشق لمقابلة وزير الأوقاف ومن ثم متابعة سفري مع الوفد المرافق إلىٰ اسطنبول وعند استئذاني للشيخ بالانصراف لمقابلة الوزير أجابني بأنه سيرافقني إلىٰ دمشق لزيارة الوزير فسررت بذلك.

كان لقاء الوزير لنا بالغ الحفاوة لصحبتنا للشيخ وما له من احترام وتقدير عنده، وفي أثناء الجلسة سأل الوزير الشَّيخ هل ستذهب إلىٰ اسطنبول فأجاب الشَّيخ إن شاء الله فقلت في نفسي لعل الشَّيخ يجامل الوزير وسيعود.

أنهىٰ الوزير توصياته لنا وودعنا بمثل ما استقبلنا به من حفاوة وتكريم.

وركب الشَّيخ معنا وهو صامت ومضينا متوجهين إلىٰ المطار ولم أشأ أن أقطع انشغاله بالأذكار وقلت في نفسي لعله يودعنا في المطار ويرجع مع السّيارة إلىٰ درعا، لكنه تقدمنا في المطار إلىٰ قاعة الشّرف الّتي فتحت لنا وسط ترحيب كبار ضباط المطار.

فقلت في نفسي وقد أسرني إصرار الشَّيخ علىٰ وداعنا لآخر لحظة: ما هذا التواضع الجم؟

جاء مسؤول العلاقات العامة في الوزارة يدعونا للتوجه إلىٰ الطّائرة وهو يحمل في يده بطاقات الصّعود إلىٰ الطّائرة وجوازات الوفد الّتي كانت معه منذ شهر لاستصدار الموافقات الأمنية وتأشيرات الفيزا إلىٰ تركيا بعد أن قام بختمها من موظفي الجوازات.

ولم يكن جواز الشَّيخ بينها؛ لأنه أصلًا لم يكن يحمل جوازًا، فقام الشَّيخ أولنا وتوجه للبوابة وقد عقدت الدهشة لساني ولسان الوفد المرافق جميعًا ليأخذ المقعد الّذي دعي إليه في الطّائرة وهو مشغول بأذكاره فقلت في نفسي والخوف يتملكني مما قد يحصل لا بأس هذا في سوريا وبين من يعرفك ويعرف قدرك فماذا سيكون يا شيخي في إسطنبول، ولم يدر في خلدي أن ما سيكون هناك أعجب.

وصلنا إلىٰ إسطنبول ونزلنا من الطّائرة وتوجهنا إلىٰ قاعة استقبال كبار الزّوار يتقدمنا الشَّيخ عبد العزيز ريثما يتم إنهاء إجراءات الجوازات المجمعة والّتي أخذها أحد أفراد وفد الاستقبال. فحصل ما لم يكن بالحسبان وهو أن أحد كبار المستقبلين طلب من الشَّيخ خلع العمامة لأن القوانين التّركية حينها كانت تمنع لبسها في تركيا فأبىٰ الشَّيخ أن يخلعها وأفادهم أنه سيعود والوفد المرافق له إن أصروا علىٰ ذلك. فغادرنا ذلك الشّخص ليعود علىٰ استحياء بعد تواصله مع رؤسائه معتذرًا ولسان حاله يقول: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وطلب منا مرافقته إلىٰ مقر إقامتنا في اسطنبول فقام الشَّيخ لنتبعه وهو يسير في المقدمة بخطًى واثقة مديدة وأنا أتبعه مهرولًا لعلي أحظىٰ بما حظي به من حفاوة وتكريم رغم أني أنا رئيس الوفد الرّسمي وقد عقدت الدهشة ألسنتنا.

قضينا أيام المؤتمر وأنا أحرص علىٰ ملازمة الشَّيخ في كل لحظة وتحري خدمته لعلي أحظىٰ بشيء من الاحترام والتّقدير الكبير الّذي حظي به من جميع الحاضرين في المؤتمر منظمين ومشاركين من كل دول العالم الإسلامي.

انتهت أيام استضافتنا في المؤتمر سريعًا وغادرنا اسطنبول مودعين بمثل ما استقبلنا به من حفاوة وتكريم وأنا في ذهول مما أرىٰ ويحصل ولا أكاد أصدق ما حصل ولأكون شاهدًا علىٰ أغرب القصص والفصول في حياة هذا الرّجل غرابة بل في حياتي أيضًا ولسان حالي يردد قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]. انتهىٰ كلامه.

وقد روىٰ هذه الحادثة الطّريفة الجميلة الجليلة غير واحد من أهل العلم والفضل الثّقات الأثبات، رحم الله تعالىٰ شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد وأسكنه الفردوس الأعلىٰ.

موقف مشهود قبيل دعوة في القصر الرّئاسي

كان الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كما عرفناه مهيبًا جليلَ القَدر، يزينه وَقار العُلماء العاملين الرَّبانيين، وله في كل مكان موقفٌ مَحمودٌ وأثرٌ مَشهودٌ يُجسدُ مكانة العالم الرَّباني، ويَحكي نُبْلَ شَأنه وعظيم فَضلِهِ، ويَحرصُ على سمعة أهل العلم وعلو منزلتهم وسُمو رُتبتِهِمْ، يَعْلَمُ ذلك تلاميذه ومحبوه وعارفوه، وهذه واحدة من شهادات إخوانه مِنَ العلماء الأفاضل الأجلّاء، يقول فضيلة الشَّيخ عبد الرّحمن الأحمد [1] حفظه الله تعالىٰ وبارك في حياته، وأثبتُ هنا ما سَطَرَهُ بِقَلَمِهِ لا جَفَّ مِدَادهُ:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام علىٰ سيدنا محمَّد إمام الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

في عام ١٩٨٨م وفي العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك تم استدعاء عدد كبير من علماء سوريا للحضور إلىٰ المأدبة الّتي كان يقيمها حافظ الأسد كالعادة في كلّ عام في رمضان وكنت من بين المدعوين آنذاك.

وفي عصر ذاك اليوم تم اجتماع المدعوين في جامع العثمان (المعروف

---

(١) الشَّيخ الدّكتور عبد الرّحمن الأحمد أبو كُلال، حفظه تعالىٰ وبارك الله فيه، من الدعاة في بلاد الشَّام العاملين، من رجالات الثّورة السّوريّة المنصورة بإذن الله تبارك وتعالىٰ، وله جهد مشكور وسعي مقدور في الدّعوة والتّعليم الشّرعيّ، وإصلاح ذات البين، وكان أستاذا في معهد الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في مدينة معّرة النّعمان، وكذلك في مهجره في تركيا، حيث أقام مع إخوانه فروعا لمعهد الإمام النووي ويدير فرعًا للمعهد في جنوب تركيا.

بجامع الكويتي) بدمشق بجانب وزارة الأوقاف، وقد حضر وزير الأوقاف عبد المجيد الطّرابلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبدأ بالتّرحيب بالمدعوين، **ثم بدأ بإلقاء بعض التّعليمات:**

ممنوع أحد يسأل الرئيس أي سؤال

وممنوع أحد يطلب من الرئيس أي طلب

وممنوع أحد يقبل الرئيس، وهكذا...

وفجأة قام فضيلة الشَّيخ عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال للوزير: يا سيادة الوزير سأقول كلمات باسمي واسم جميع الإخوة الموجودين من غير أنْ يُوكلوني لكني أعتقد أنه لا يوجد بينهم من يخالفني في طلبي فقال له: تفضّل. فقال: يا سيادة الوزير نحن اليوم نرفض الذّهاب إلىٰ القصر الجمهوريّ لملاقاة الرئيس، فقال له: ولِمَه؟ قال: بسبب الإهانات الّتي نتعرّض لها في كل عام من قبل حراس القصر عند تفتيشنا، فبعضهم يرفع العمامة عن رؤوسنا، وبعضهم يمرر يديه يفتش في طريقة لا تليق بالمدعوين، وبعضهم يطلب منّا رفع اليدين.

فإمّا أن نكون أهل ثقة فلا يحق لهم تفتيشنا وإمّا إن كنا بنظرهم غير ثقات فلا ينبغي لهم أن يدعونا.

وحينئذ وبصوت واحد قال الجميع: نعم نحن مع ما يقوله فضيلة الشَّيخ عبد العزيز.

وهنا وقع الوزير في حيص بيص كما يُقال.

فقال: يا إخوة لم يبق إلا ساعتان فقط علىٰ موعد الدّعوة وهذا الأمر لا يجوز.

فقال له الشَّيخ عبد العزيز: أنا أخفف لك المسألة، وأسألك بالله: هل يقوم حراس القصر بتفتيش جميع الخوارنة والقساوسة الّذين يزورون الرئيس؟

فقال الوزير؛ نعم والله العظيم لا يدخل واحد منهم إلا بعد التّفتيش، وكذلك أخبركم بأنه لا يدخل وزير ولا أي مسؤول على الرئيس إلا بعد تفتيشه، فقال الشَّيخ له: عليهم أنْ يحترموا العلماء ويتأدبوا معهم، فقال الوزير: وأنا سأسبقكم قليلا إلى القصر وأخبر المسؤولين بهذا الأمر وأطلب منهم أن يحترموكم غاية الاحترام ثم قام وذهب.

وفعلا فقد دخلنا القصر وكان جميع الحراس يفتشون العلماء تفتيشًا روتينيًا بلا أدنى إزعاج، وكان السّبب في ذلك موقف الشَّيخ البطل عبد العزيز أبا زيد رحمه الله بواسع رحماته وأسكنه فسيح جناته». انتهى كلامه.

ختامًا

هذه غيض من فيض، وقلٌّ مِنْ كُثرٍ من مواقف شيخنا العلّامة عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، فقد كان نُبلًا يَتَجَسَّمُ، وفَضْلًا يَتَكَلّم، وفَضَائل تَسِير فَوق الثَّرىٰ، وتَمِشي بين الوَرىٰ، وأنَّىٰ لقلمي العَاجز الكلِيل وبياني القَاصِر العَليل أنْ يُحيط بمآثر الشَّيخ العَلَمِ النَّبِيل الجَليل.

والله تعالىٰ أسأل وإليه بأسمائه الحسنىٰ أتوسل أنْ يُسكن الشَّيخ الفردوس الأعلىٰ وأنْ يَجْمعنا به في دار كرامته، إنَّ ربنا خير مسؤول وأكرمُ مأْمُول.

والمُلتقىٰ في جنان الخلدِ إنْ قُبِلتْ لنـا صـلاةٌ وطاعـاتٌ وأذكـارُ[1]

وصلىٰ الله تعالىٰ وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمَّد إمام الأنبياء والمرسلين وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين وآخر دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

❊❊ ❊❊ ❊❊

قام بالطّباعة مشكورًا مأجورًا أخونا الحبيب محمَّد مصطفىٰ الشّامي جزاه الله خير الجزاء، وأسبغ عليه النّعم والآلاء ووفقه لخدمة الشّريعة الإسلاميّة الغراء وبارك له في الأوقات والأبناء.

---

(١) البيت من قصيدة للعلامة الدّكتور مصطفىٰ السّباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وأخونا الحبيب فضيلة الشيخ الأستاذ محمد مصطفىٰ الشامي الحموي أبو مصطفىٰ هو سبط شيخنا العلامة المجاهد المربي الداعية الشيخ سعيد حوىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ وأسكنه الفردوس الأعلىٰ ، وهو عضو رابطة العلماء السوريين ، وأستاذ في معهد مكة المكرمة ، وله جهود مشكورة مباركة في نصرة الثورة السورية المباركة المنصورة بلسانه وسنانه وله إسهامات مباركة مقدورة في التربية والتعليم والدعوة إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ .

القدس تنادي

شعر / عطية الوهيبي

كتبت هذه القصيدة في أثناء انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ م

حين دنس رئيس الوزراء اليهودي الهالك المقبور شارون

باحات المسجد الأقصى.

احْمِلْ سِلَاحَكَ لَا تَعِشْ رِعْدِيدَا ... وَانْهَدْ إِلَى سُوحِ الْوَغَى صِنْدِيدَا

وَانْزِعْ ثِيَابَ الذُّلِّ وَالْبَسْ حُلَّةً ... نُسِجَتْ بِعِزٍّ كَيْ تَعِيشَ حَمِيدَا

وَاسْتَقْبِلِ الْمَيْدَانَ أَرْوَعَ مَاجِدًا ... فَمِنَ السَّعَادَةِ أَنْ تَمُوتَ شَهِيدَا

لَا يُرْهِبُ الْأَعْدَاءَ إِلَّا مُسْلِمٌ ... هَوِيَ الشَّهَادَةَ وَالِدًا وَوَلِيدَا

لَا يَصْنَعُ التَّارِيخَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ... خَاضَ الْوَقَائِعَ مُصْحَفًا وَزُنُودَا

مُتَسَرْبِلٌ بِالْمَوْتِ مُشْتَمِلٌ عَلَى ... غُرِّ الْخِصَالِ جَرَاءَةً وَصُمُودَا

يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ هَلْ مِنْ وَثْبَةٍ ... تَذَرُ الْيَهُودَ مُجَدَّلًا وَطَرِيدَا

الْقُدْسُ نَادَتْ فَاسْتَجِيبِي لِلنِّدَا ... فَلَقَدْ نَسَلْتِ الْفَاتِحِينَ الصِّيدَا

وَبَنَيْتِ صَرْحَ حَضَارَةٍ مَيْمُونَةٍ ... رَغْمَ الْحَوَادِثِ لَا يَزَالُ مَشِيدَا

النَّتْنُ فَلْيَخْسَأْ وَيَخْسَأْ حِزْبُهُ ... هَيْهَاتَ نَخْشَى أَكْلُبًا وَقُرُودَا

إِنَّ الْيَهُـــودَ عِصَـــابَةٌ مَذْؤُومَـــةٌ ... رَعَـتِ الْمَخَـازِيَ طَارِفًـا وَتَلِيـدَا

كَفَـرَتْ إِلَـهَ الْعَـرْشِ فِـي عَلْيَائِـهِ ... وَاغْتَالَـتِ الرُّسُـلَ الْكِـرَامَ كُنُـودَا

كَـمْ مِـنْ أَبٍ ذَبَحَـتْ بَنِيـهِ وَحُـرَّةٍ ... ثَكْلَـىٰ تُنَـاجِي رَبَّهَـا الْمَعْبُـودَا

كَـمْ حَرَّفَـتْ كَلِـمَ الْكِتَـابِ غَوَايَـةً ... وَعَثَـتْ فَسَـادًا فِـي الـدُّنَا وَجُحُـودَا

أَفْعَـىٰ الْعُلُـوِّ تَفِـحُّ فِـي وُجْـدَانِهَا ... وَتَـرَىٰ الْـوَرَىٰ خَـوَلًا لَهَـا وَعَبِيـدَا

ذَهِلَـتْ ذِئَـابُ الْغَـدْرِ مِـنْ عُـدْوَانِهَا ... لَـمْ تَـرْعَ يَوْمًـا لِلنَّبِـيِّ عُهُـودَا

يَا مَجْلِسَ الرُّعْبِ الخَؤُونَ أَمَا تَرَىٰ ... سُوقَ الْمَجَازِرِ هَلْ غَدَوْتَ بَلِيدَا

أَوَ مَـا تَـرَىٰ شَـعْبًا يُبَـادُ وَأَرْضُـهُ ... أَمْسَـتْ يَبَابًـا هَـلَ تَرُيـدُ مَزِيـدَا

وَالْعِلْجُ كَلْبُ الْبَغْيِ يَزْحَفُ بِالحَصَىٰ ... مِـنْ كُـلِّ مِصْـرٍ يَسْـتَزِيدُ حُشُـودَا

وَيَهُـودُ تُغْرِيـهِ وَتُـورِي ضِـغْنَهُ ... فِـي كُـلِّ أَرْضٍ يُوقِـدُ الْأُخْـدُودَا

إِرْهَابُـهُ لَيْـلٌ ظَلُـومٌ غَاشِـمٌ ... لَكِـنَّ ضَـوْءَ الصُّبْحِ لَـيْسَ بَعِيـدَا

يَـا رَبِّ مَزِّقْـهُ وَتَبِّـرْ حِلْفَـهُ ... صَـيِّرْهُمُ يَـا ذَا الْجَـلَالِ حَصِـيدَا

رَبَّـاهُ أَيِّـدْ دِينَـكَ الْحَـقَّ الَّـذِي ... قَـادَ الشُّـعُوبَ هِدَايَـةً وَسُـعُودَا

وَانْصُـرْ عِبَـادَكَ يَـا إِلَهِـي وَارْعَهُـمْ ... وَامْـنَحْهُمُ التَّأْيِيـدَ وَالتَّسْـدِيدَا

يَـا هَيْئَـةً بِيَـدِ الْيَهُـودِ زِمَامُهَـا ... وَغَـدَتْ تَسُـنُّ الْقَتْـلَ وَالتَّهْوِيـدَا

أَوَ مَـا تَـرَيْنَ الْوَغْـدَ يَسْـقِي طِفْلَـةً ... كَـأْسَ الْمَنُـونِ مُزَمْجِـرًا عِرْبِيـدَا

وَتَصِيحُ مِنْ أَلَمٍ يُقَطِّعُ صَوْتَهَا ... وُتْنَ الْجَنَادِلِ حَسْرَةً وَسُمُودَا

أَوَ مَا تَرَيْنَ اللَّيْلَ يَبْطِشُ بِالضُّحَىٰ ... كَيْلَا يَسُودَ ضِيَاؤُهُ وَيَعُودَا

يَا قِبْلَةَ التَّوْحِيدِ مَسْرَىٰ الْمُصْطَفَىٰ ... أَبْشِرْ سَيُنْجِزُ رَبُّنَا الْمَوْعُودَا

هَذِي فِلَسْطِينُ الْأَبِيَّةُ أَسْرَجَتْ ... خَيْلَ الْمَنَايَا لَا تَخَافُ وَعِيدَا

هَذِي فِلَسْطِينُ الْجِهَادُ تَلَهَّبَتْ ... ثَأْرًا وَنَارًا تُحْرِقُ التُّلْمُودَا

وَكَتَائِبُ الْإِسْلَامِ تَلْتَهِمُ الْعِدَا ... يَوْمَ الْكَرِيهَةِ قَادَةً وَجُنُودَا

قَسَّامُهَا يَاسِينُهَا عَيَّاشُهَا ... أَضْحَوْا عَلَىٰ شَفَةِ الزَّمَانِ نَشِيدَا

أَطْفَالُهَا بَذُّوا اللُّيُوثَ بَسَالَةً ... خَطُّوا عَلَىٰ هَامِ الْحَيَاةِ خُلُودَا

وَرِجَالُهَا وَشُيُوخُهَا وَنِسَاؤُهَا ... نَفَرُوا سِرَاعًا صَرْصَرًا وَرُعُودَا

لَبَّيْكَ أَقْصَانَا فِدَاكَ دِمَاؤُنَا ... يَا آيَةَ التَّنْزِيلِ عِشْتَ مَجِيدَا

مَا جَنَّ لَيْلٌ وَادْلَهَمَّ ظَلَامُهُ ... إِلَّا وَبَاتُوا رُكَّعًا وَسُجُودَا

وَإِذَا الْفَيَالِقُ عَرَّدَتْ أَبْطَالُهَا ... أَبْلَوْا وَكَانَ بَلَاؤُهُمْ مَحْمُودَا

للهِ دَرُّهُمُ شُمُوسًا أَشْرَقَتْ ... عَزُّوا وَطَابُوا شِرْعَةً وَجُدُودَا

اللهُ غَايَتُهُمْ وَأَمْسَىٰ غَيْرُهُمْ ... يَهْوَىٰ الْحَيَاةَ خَرِيدَةً وَثَرِيدَا

أَرَبِيبَةَ الْإِرْهَابِ إِنَّ دِمَاءَنَا ... سَتَكُونُ شَمْسًا تَصْهَرُ النَّمْرَودَا

اللهُ مَوْلَانَا وَيَجْمَعُ شَمْلَنَا ... نُورُ الْقُرَانِ هِدَايَةً وَوُجُودَا

يَا أَيُّهَا الْعُرْبُ اسْتَفِيقُوا وَانْهَضُوا ... وَذَرُوا الْكَلَامَ وَطَلِّقُوا التَّنْدِيدَا

هُدِمَتْ مَسَاجِدُكُمْ فَأَيْنَ أَذَانُهَا ... كَمْ خَرَّجَتْ بِيضَ الْوُجُوهِ أُسُودَا

وَالْمَسْجِدُ الْمَأْسُورُ يَتْعَبُ جُرْحُهُ ... يَشْكُو إِلَيْكُمْ مِعْصَمًا وَقُيُودَا

غُزِيَتْ دِيَارُكُمُ أَمَا مِنْ صَوْلَةٍ ... تَحْمِي الْعَرِينَ هِضَابَهُ وَالْبِيدَا

خَرِسَتْ مَدَافِعُكُمْ فَأَيْنَ رُمَاتُهَا ... إِنَّ النَّوَائِبَ تُنْطِقُ الْجُلْمُودَا

رَقَدَتْ مَسَالِحُكُمْ فَأَيْنَ كُمَاتُهَا ... حُشُّوا[1] الْحُرُوبَ جَحَافِلًا وَحَدِيدَا

فِيمَ التَّنَازُعُ وَالتَّدَابُرُ وَالْوَنَى ... أَوَمَا سَئِمْتُمْ ذِلَّةً وَقُعُودَا

أَمْوَالُكُمْ يَقْوَى بِهَا أَعْدَاؤُكُمْ ... رَكِبُوا الْفَضَاءَ وَفَجَّرُوا الْبَارُودَا

جَذِلَتْ بُنُوكُ الْغَرْبِ بِاسْتِقْبَالِهَا ... لَثِمَتْ سِرَاعًا نَحْرَهَا وَالْجِيدَا

حَاخَامُ صُهْيُونٍ يَحُوزُ نُضَارَهَا ... وَبِأَرْضِ رُومَا عُمِّدَتْ تَعْمِيدَا

حَتَّى مَتَى يَلْهُو بِهَا سُفَهَاؤُكُمْ ... فِي كُلِّ صُقْعٍ بُدِّدَتْ تَبْدِيدَا

أَلِفُوا الْغَوَانِيَ وَالْمَوَائِدَ إِنَّهُمْ ... فِي كُلِّ يَوْمٍ يُبْدِعُونَ جَدِيدَا

أَوْطَانُنَا انْتَحَبَتْ وَحُقَّ لَهَا الْبُكَا ... تَشْكُو الْهَوَانَ وَتَمْقُتُ الْتَشْرِيدَا

إِسْلَامُنَا يَا قَوْمُ يُرْجِعُ قُدْسَنَا ... أُوبُوا إِلَيْهِ وَعَظِّمُوا التَّوْحِيدَا

(١) حَشَّ الحربة: أوقدها وأضرمها.

أحمد الياسين

كتبت هذه القصيدة حين اغتالت طائرات الاحتلال الصهيوني شيخ المجاهدين أحمد ياسين مؤسس حركة حماس في صباح يوم الاثنين غرة صفر عام ١٤٢٥ للهجرة النبوية المباركة يوافقه الثاني والعشرون من شهر مارس عام ٢٠٠٤ في أثناء عودته من صلاة الفجر في مسجد المجمع القريب من منزله في حي صبرا في غزة الأبية في عملية أشرف عليها رئيس الوزراء اليهودي الهالك المجرم المقبور شارون رئيس وزراء الكيان اليهودي الغاصب اللعين.

الشَّـيْخُ أَحْمَدُ قَدْ قَضَـىٰ يَا صَـاحِ ... مُتَسَـرْبِلًا بِـدِمَائِـهِ فِي السَّـاحِ

الْبَـدْرُ يَـاسِـينُ الَّـذِي مَلَأَ الـدُّنَـا ... عِلْمًـا وَإِقْـدَامًـا وَخَفْضَ جَنَـاحِ

أَدَّىٰ صَـلَاةَ الْفَجْـرِ فِـي مِحْرَابِـهِ ... فَهَوَتْ عَلَيْـهِ قَنَـابِـلُ السَّـفَّـاحِ

يَا أَحْمَدُ الْيَاسِـينُ كَمْ سَـطَّرْتَ مِنْ ... أَسْـفَـارِ بِرٍّ بِـالتُّقَىٰ لَا الرَّاحِ

وَتَـلَـوْتَ آيَـاتِ الْكِتَـابِ مُرَتَّـلًا ... بِـاللَّيْـلِ وَالْآصَـالِ وَالْإِصْـبَـاحِ

يَـا أَيُّهَـا الطَّوْدُ الْمَنِيعُ جَنَـابُـهُ ... جَـدَّدْتَ سِـيرَةَ طَـارِقٍ وَصَـلَاحِ

نَضَّـرْتَ آمَـالَ الْجِهَـادِ وَذُدْتَ عَنْ ... مَسْـرَىٰ النَّبِـيِّ بِهِمَّـةٍ وَصَـلَاحِ

وَنَسَـجْتَ لِلْأَوْطَـانِ بُـرْدَ نِضَـالِهَا ... بِـدَمٍ زَكِـيٍّ طَـاهِـرٍ سَـيَّـاحِ

فَانْسَـلَّتِ الْجَـوْزَاءُ تَلْـثِمُ عِطْـرَهُ ... وَتَوَشَّـحَـتْ مِنْـهُ بِخَيْرِ وِشَـاحِ

وَبَدَا سُهَيْلٌ ثَائِرًا مُتَلَهِّبًا ... مُتَشَوِّقًا لِوَقِيعَةٍ وَكِفَاحِ

وَتَأَوَّهَتْ زُهْرُ السَّمَاءِ لِفَقْدِهِ ... وَبَكَتْ فِعَالَ السَّيِّدِ الْجَحْجَاحِ

ذَرَفَتْ عُيُونُ الْمَجْدِ وَابْيَضَّتْ عَلَىٰ ... بَدْرٍ مُنِيرٍ مُثْخَنٍ بِجِرَاحِ

وَاسْتَنْفَرَتْ شُمُّ الْجِبَالِ جُنُودَهَا ... وَتَسَرْبَلَتْ بِصَوَارِمٍ وَرِمَاحِ

زَأَرَتْ أُسُودُ الغَيْلِ فِي آَجَامِهَا ... وَنَضَتْ ثِيَابَ الذُّلِّ وَالْأَتْرَاحِ

مِنْ كُلِّ مِقْدَامٍ أَبِيٍّ مَاجِدٍ ... وَارِي الْعَزِيمَةِ عَاشِقٍ لِكِفَاحِ

حَازَ الْفَضَائِلَ غُرَّهَا وَحِسَانَهَا ... جُودًا وَإِحْسَانًا وَفَيْضَ سَمَاحِ

خَطَبَ الْجِنَانَ نَعِيمَهَا وَحِسَانَهَا ... عَجْلَانَ يَبْغِي رَحْمَةَ الْفَتَّاحِ

طُوبَىٰ لَهُ قَدْ نَضَّرَ الْعَهْدَ الَّذِي ... بَيْنَ الْإِلَهِ وَأُمَّةِ الْإِصْلَاحِ

تَبًّا لِقَوْمٍ غَرَّهُمْ وَعْدُ الْعِدَا ... مِنْ كُلِّ وَغْدٍ شَانِئٍ نَبَّاحِ

إِنْ هَرَّهُمْ كَلْبُ الْيَهُودِ عَشِيَّةً ... طَارُوا إِلَيْهِ سُرًى بِغَيْرِ جَنَاحِ

أَلِفَتْهُمُ الصَّهْبَاءُ أَخْدَانًا لَهَا ... ظَنُّوا الْبُطُولَةَ فِي خَنًى وَسِفَاحِ

مَا آخَوُا الْهَيْجَاءَ يَوْمًا وَالْقَنَا ... وَتَنَافَسُوا فِي مَيْسِرٍ وَقِدَاحِ

وَتَهَوَّدُوا وَتَمَجَّسُوا وَتَأَبْلَسُوا ... وَلِقَاءُ (لِيفني) مُهْجَةُ الْأَرْوَاحِ

كَمْ سَارَعُوا فِي لَثْمِ خَدَّيْهَا وَهُمْ ... يَتَطَيَّبُونَ بِعِطْرِهَا الْفَوَّاحِ

سُحْقًا لَهُمْ مِنْ عُصْبَةٍ مَشْؤُومَةٍ ... الْقُدْسُ تَلْعَنُهُمْ بِكُلِّ صَبَاحِ

الْحَقُّ تَحْرُسُهُ السَّوَاعِدُ وَالظُّبَا ... لَا يُسْتَرَدُّ بِمَأْتَمٍ وَنُوَاحِ

يا شام ثوري[1]

يـا شـــام ثوري حطّمي الأغلالا ... ليـلُ الطغـاة بـأرضـــنـا قـد طـالا

لله درّك كـم قـهـرت مـعـاديًـا ... ونسـلت شـهمًا فارسًـا رئبالا[2]

أبنـاؤكِ النُجُـبُ الأبـاةُ تعـاهـدوا ... أن يُسـقـطوا الأقزامَ والأنـذالا

من رامَ أهـل الشّـام يبغي ذُلهَم ... حصـد البـوار وأُورِد الأهـوالّا

(بشـار) فارحل عن بلادي إنَّها ... تـأبىٰ بقـاءك واحمـل الأثقـالا

ارحل إلىٰ (ليفني) عميدة بيتكم ... ولسـوفَ تلقـىٰ الويـل والإذلالا

أبـنـاء حـوران الأُلـىٰ قـتَّـلـتـهـم ... أضحوا نجومًا في الدجىٰ تتلالا

قد أشـرقت شـمس الكرامة من دم ... مـن جـرحِ حـوران الأبيّـة سـالا

هم عبَّدوا درب الشّـهادة والفدا ... ولسـوف نمضـي سـادةً أبطالا

عبـد العزيز[3] البـدر روح طَوّفـت ... فوق المـآذن ترمُق الأشـبـالا

لله درّهُـمُ فـهـم أهـل الـحِـجـىٰ ... لا تـزعـمـوهـم ويـحـكـم أطفـالا

إن النّـــواوي النبيـــل إمامنـــا ... فوق الطّروس يراعه قـد صـالا

---

(١) كتبت هذه الأبيات عُقيب المجزرة الرّهيبة الّتي ارتكبها أزلام بشار في المسجد العمري بدرعا في يوم الأربعاء ٢٣/٠٣/٢٠١١م.

(٢) الرئبال: الأسد.

(٣) هو شيخنا العلّامة المربي المجاهد عبد العزيز أبا زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والأشبال هم أطفال درعا الّذين أوقدوا شرارة الثورة السّورية المباركة، واعتقلهم جلاوزة السّفاح بشار، وسامهم سوء العذاب.

كتب الرِّياض وسطّر المجموع لم ... يكنز من الدّنيا ولو مثقالا

(حسون) قم منهم تعلَّم إنهم ... بذّوا اللّيوث وعلَّموا الأجيالا

العلج بشارٌ أذلَّ بلادنا ... قتل العباد وصفَّد الأموالا

مفتيه حسّونٌ أباح دماءنا ... أفتى بأنَّ الظلم صار حلالا

حسونُ أقلع عن ضلالك واتعظ ... وذر الغواية واهجر الضُلّالا

هل يرتجى الإصلاح ممن أفسدوا ... وعلى الرذائل أقبلوا إقبالا

نصبوا المشانق بالألوف وعربدوا ... وذوو المروءة أُعدموا أرتالا

خمسون عامًا والشآم ذبيحة ... والمخلصون تمزّقوا أوصالا

يا ليلَ حكم المجرمين ألا انجل ... عن صبح عزٍّ وارفع الأسدالا

فالموت حقٌّ والقيامة موعد ... وذوو الضَّلال يجرَّعون خبالا

يا أيها العلماء هبوا وانهضوا ... وَرِثُوا الرسول مواقفا وفعالا

لا يصنع التاريخ إلا أنتُمُ ... أوروا العزائم أسرجوا الآمالا

من كلِّ فجٍّ في الشَّآم تبلّجت ... أنوار فجر صادق يتعالى

يا أهلنا في الشَّام هذا يومكم ... بفعال صدق زيِّنوا الأقوالا

المحتويات

مقدمة ٥

تعريف وجيز بالشَّيخ عبد العزيز أبا زيد ٩

مع الشَّيخ في رحاب المسجد الحرام وأول لقاء بعد الهجرة ١٨

نَشرُ العِلم الشَّرعي ٢٦

الأمْرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنْكرِ ٣٥

الشَّيخ والمناسبات الاجتماعية ٤٣

إحياءُ المناسبات الإسلامية ٥١

الجانب الإنساني والعاطفي عند الشيخ ٥٢

رعاية اليتامى والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ٥٨

الشَّيخ وعمارة المسَاجِد ٦٠

إصلاحُ ذَاتِ البَيْن ٦٥

الشيخ وفقه الموازنات ٦٦

الشَّيخ والشَّبابُ ٧٩

الشَّيخ والحركة الإسلامية ٨٧

الشَّيخ والجِهاد ٩١

الشَّيخ وسجون الطّواغيت ٩٣
رئيس الوزراء عبد الرؤوف الكَسْم في محافظة درعا ٩٦
الشيخ وصلاة الغائب على الطاغية الهالك حافظ الأسد ١٠٠
عباءة المُحافظ! ١٠٥
حزب الإمام النَّووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١١٤
وفاؤه لأساتذته وشيوخه ١١٩
احتفاء العلماء بالشَّيخ وتوقيرهم له ١٢٠
طرف من مواقف سيدي ووالدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ١٢٢
من أقوال طلبة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ١٢٩
موقف منيف عجيب! ١٣٩
موقف مشهود قبيل دعوة في القصر الرئاسي ١٤٤
ختامًا ١٤٧
من شعر عطية الوهيبي ١٤٩
القدس تنادي ١٤٩
أحمد ياسين ١٥٣
يا شام ثوري ١٥٥
المحتويات ١٥٧

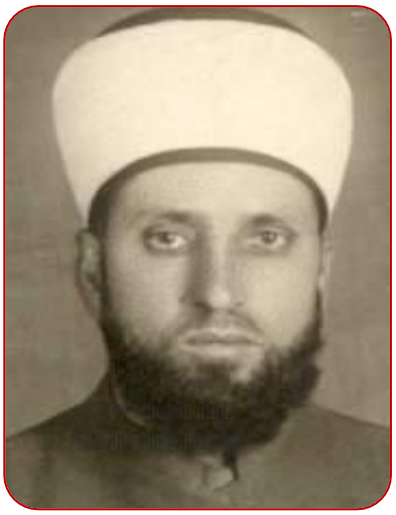

الشَّيخ في شبابه

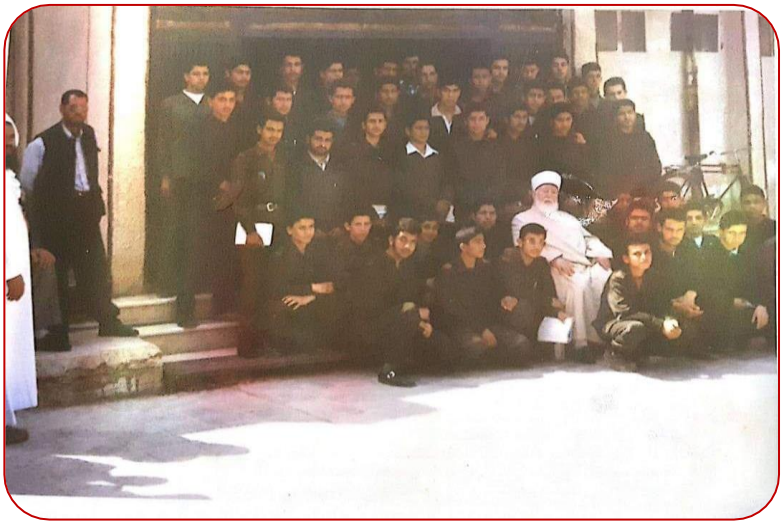

REDMI NOTE 8
AI QUAD CAMERA

اجمل الصور من درعا

لم يكن الشَّيخ يتوانى عن القيام بشؤون المسلمين ولم يداهن في دينه يومًا

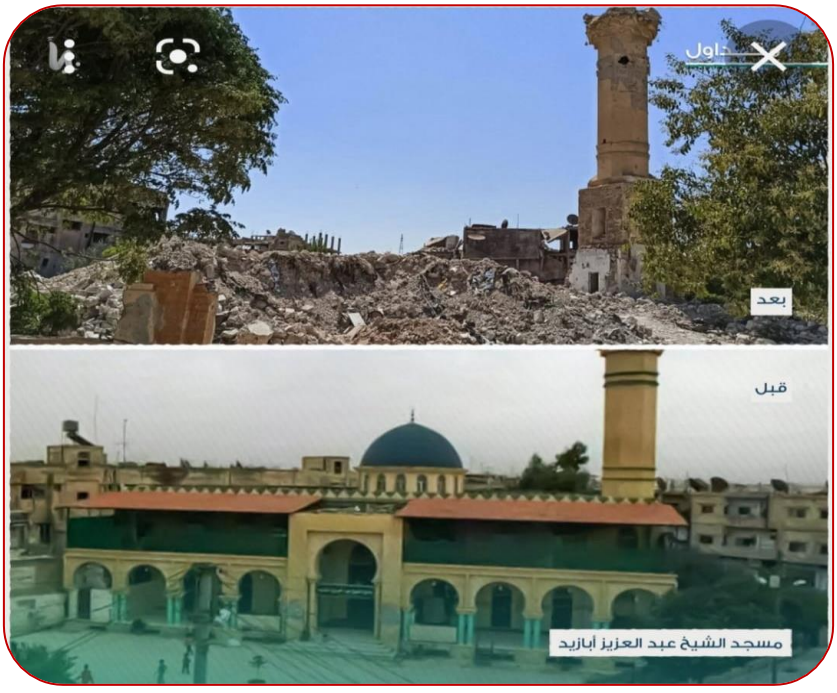

مسجد المحطة الّذي اشتهر باسم مسجد الشَّيخ عبد العزيز في درعا الّذي أحالته عصابات الجيش النّصيري إلى ركام

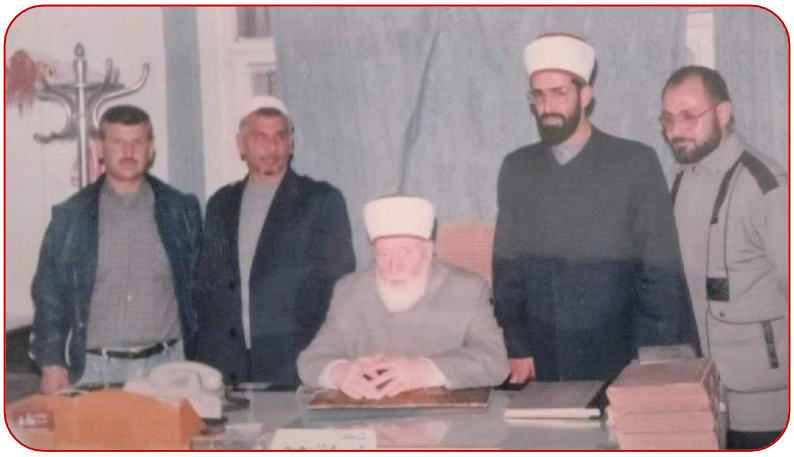

الشَّيخ مع طلابه

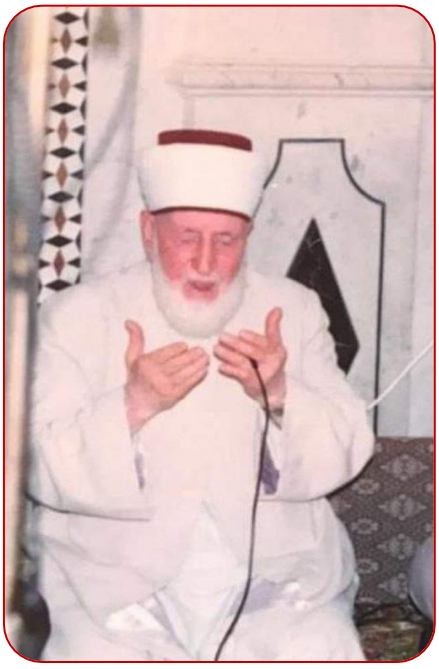

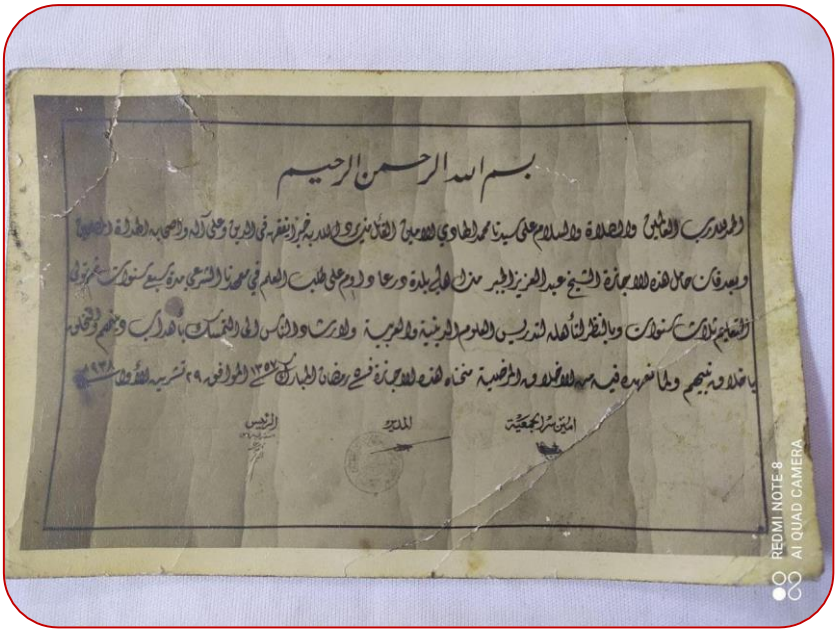

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ العلامة عبد العزيز أبا زيد

في موقع التدريب والإعداد

مسجد الشيخ عبد العزيز أبا زيد (مسجد المحطة)

لم يبق منه إلا المئذنة